قواعد الأديان

تأليف

شيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد
ابن عبد الحليم الشهير بابن تيمية
المتوفى سنة ٧٢٨ هجرية

دراسة وتحقيق

إبراهيم محمد الجمل

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ ١٩٨٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة وتقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونسترضيه ونستغفره ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

ونصلى ونسلم على رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم سيد الأولين والآخرين ، وحبيب رب العالمين ، والمبعوث رحمة للعالمين ، نبى الهدى والسلام نبى الرحمة والمودة . . . وعلى آله وصحبه وأتباعه وذريته وآل بيته أجمعين . . .

أما بعد / . . .

فمازلنا وسنزال متعطشين للنيل من منابع العلم ، ومازالت أمتنا الإسلامية المعاصرة وستزال دائماً تفتقد المنهج القويمَ لحياة يحلم بها الطيبون والمفكرون وأولو البصائر منهم . .

ذلك بعد أن دهمتهم عضات الزمان ، وقصور تفكير الإنسان وإحداث العاهات والعاهات على وجه المعمورة .

ولهذه الحاجة الماسة إلى العلوم فإننا نفخر أن نقدم لهم عالماً عرفوه بل وعايشوه ومنهم من حاربه . . ولكن ليس عالمنا ككل العلماء بل إنه نوع رفيع فريد متميز . .

نقدمه سيراً على الدرب ومحاولة من محاولات باحث لعل الله أن يحدث بعد ذلك أمراً .

التصوف . . . وموقف ابن تيمية :

الحق أن ابن تيمية ركز هجومه على المدارس التى ظهر فيها إيهام الحلول والاتحاد كمدرسة ابن عربى وابن سبعين وابن الفارض

والحلاج . وقد تتبع ابن تيمية الأفكار التى أثرت فى الحلاج من معاصريه أو من قريبي العهد من عصره كابن بسكويه (٣٦٩) هـ والحافظ البغدادى (٤٦٣) هـ وابن الجوزى (٥٩٧) . وأثبت باطنية الحلاج وادعاءاته الباطلة مثل فتوة إبليس ، وبما جرى على لسانه من قوله « أنا الحق » وهاجم اعتذار الصوفية عن الحلاج ، وكشف أن الحلاج حاول خداعهم بمثل قوله « عليك بنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل » .

ولم يكن ابن تيمية يصدر عن فكره المجرد في قضية الحلاج بل إنه حكّم الشرع فى أمره حيث حاول أن يسقط ركن الحج من الإسلام .

والواقع أن هذا بين الصوفية والسلفية مازال قائماً فى حدته إلى الآن ولكنه فى عصرنا لا يتخذ صفة البحث الدقيق الهادف بقدر ما يتخذ صفة الرفض الكلى أو القبول الكلى . . . فالسلفيون يرفضون كل ما يندرج تحت كلمة التصوف من سلوكيات حتى ولو كانت سلفية شكلاً وموضوعاً ، والصوفية يرفضون إعادة النظر فى موروثاتهم ، وفى الوقت نفسه يدعون أنهم سلفيون قائمون بالكتاب والسنة .



كان التصوف يسيطر على العامة فى عصر ابن تيمية بما فيه من خرافات وانحرافات وأوهام فجرد ابن تيمية ، عليه سيف الدليل وناقشه بالحساب ، وكان الشيعة يتغلغون فى الربوع الإسلامية يبثون فيها أقوالاً مخالفة لما تقرر لدى السلف ومنهم من اعتصم بالجبال ، فتجرد لهم أيضاً ابن تيمية لمنازلة هؤلاء بالدليل الملزم وبالسيف القاطع .

الحق أن ابن تيمية وقع قلبه وعقله تحت تأثير الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وأقضيتهم وفتاويهم ، وكل ما أثر عنهم من آراء ، فهو يعيش فى جوهم ويحلق فى سمائهم ، فإذا نظر إلى الوجود وجد آراء تخالف ما كان عليه أولئك العلية السابقون وتخالف ما جاء به رسول الله ﷺ ،

فيصـدع فى الناس بأمر ربه ، ويناديهم بإحياء السنة النبوية ، واتباع الآثـار السلفية ، فتكـون المعـركة بينه وبينهم ، أو تكون بين التقليد للمشـايخ والاتباع المجرد ، وفى هذه المعركة يبدو ابن تيمية متمسكاً بالعروة الوثقى يشمخ ويشتد ، ويقول ما يعتقد ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، ويسجل ما يدعو إليه فى كتب ينشرها ، ورسائل يرسلها ومامن رأى ارتأه أو فكرة دوَّنها ألا كانت فى وسط تلك المعارك أو صدى لها ومن أجل هذا جاءت رسائله وكتبه حارة شديدة العبارة قوية المنزع [1] فلم يكن الشيخ إلا محاربـاً للفسـاد والأهوال مسانداً للحق ناشراً له ، لم يحارب المتصوفة بل حارب جهلهم بالكتاب والسنة وتقليدهم الأعمى دون نظر أو تفكر .

بين افتراءات . . وإنصاف :

عاش الإمام ابن تيمية فى عصر تبدلت فيه أحوال الأمة الإسلامية فكـراً وسلوكاً ، وكان ذلك منذ أن بعدت عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وبذلك تخلفت عن الدور القيادى الذى قدره الله لها ، وأمرها بأن تسير إليه عن طريق الجهاد . . وكان أن أخذت الأمة من فكر غيرها مما لا يحكمه كتاب ولا سنة بقدر ما تركت من هذين المصدرين الرئيسيين فى شرعة الإسلام .

★★★

كان المرض الذى أصاب الأمة هو الزيف الفكرى ، والابتداع فوق ما شرع الله وسنة رسوله ، وقد أدى هذا الابتداع الزائف إلى صراع مرير بين دعاة الإصلاح عن طريق العودة إلى سلوك السلف من الصحابة والتـابعـين وبـين أولئـك الذين أعطوا أنفسهم حق الإضافة والحذف

---

(١) ابن تيمية للشيخ محمد أبى زهرة (٢٠٩) ط دار الفكر العربى .

كما يحلو لهم ، وفيما ليس لهم فيه حق ، واقتضى هذا الصراع ظهور مدارس متعددة تدور حول العقيدة والسلوك وهما حركة الإسلام . . وكان أبين هذه المعارك وأظهرها صيحات شيخ الإسلام ابن تيمية فى القرن الثامن الهجرى فى وجه التصوف والصوفية إذ حمَّله ابن تيمية تبعة كثير من مظاهر الفساد فى الأفكار والابتداع فى السلوك .

ولئن كان الحوار بين ابن تيمية وخصومه ساخناً وحاداً ولاذعاً باعتبار أن ابن تيمية كان يمثل الهجوم الذى يعنى ببيان الحق وتمييزه عن الباطل ، ومع ذلك فلم يمنع ذلك ابن تيمية من أن يشيد بالصوفية الذين يتمسكون بالكتاب والسنة كما لم يمنع خصومه ذلك من أن يوافقوه على هجماته على بعض الصوفية فى عصره .

ومن يدمن مطالعة مؤلفات ابن تيمية يمكنه أن يدرك بسهولة أنه كان يميل إلى الزهاد الأوائل ، ويمدح شيوخ التصوف المشروع ، وفي الوقت نفسه كان ينعى على ابن عربى وأتباعه ، ويربط بين الإشراقية والصائبة .

ولقد رمى شيخ الإسلام بالغلظة وتحجر القلب من جانب الصوفية ، والحق أنه لم يكن غليظ القلب ولا متحجراً ، ولكن طبيعة الحوار الساخن الذى دار بينه وبين خصومه وهو يدعو إلى وحدة الفكر والسلوك تحت لواء السلفية قد غطى على كثير من جوانب الرقة والروحية فى شخصيته ، بل إنه كان يفيض رقة حين كان يأوى إلى المساجد المهجورة يناجى ربه أن يفتح عليه مغاليق الفكر فى مسألة أهمته قائلاً « يامعلم إبراهيم علمنى » . .

وإن كان كثير من المسلمين لم ينصفوا الرجل ، فقد أنصفه علماء الغرب ومفكروهم وباحثوهم ووضعوه فى مكانه المناسب . . والرجل لم نشهد مثله إلا قليلاً من رجالات العلم وأصحاب الفهم .

العبقرية عند ابن تيمية :

كانت لابن تيمية صفات أهلته ليكون عبقريا من عباقرة التاريخ ومن هذه الصفات : ـ

١ ـ **حافظة قوية** : قال في الكواكب الدرية « ومن أعجب الأشياء أنه لما سجن صنف كتبا كثيرة ، وذكر فيها الأحاديث والآثار ، وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم ، وعزو كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائلية ، وذكر أسماء الكتب التى ذكر ذلك فيها ، وفي أى موضع هو فيها : كل ذلك بديهة من حفظه : لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه ، ونقبت واختبرت فلم يوجد بحمد الله فيها خلل ولا تغيير »[١] أ . هـ .

٢ ـ **سعة العقل والتأمل** : « وكان رضى الله عنه يدرس المسائل متعمقاً فيها ، بل ربما قضى الليالى متفكراً فى مسألة واحدة حتى يحل مغلقها ، وينتهى إلى الأمر الجازم فيها ، وكان يتأمل الآيات والأحاديث وقضايا العقل ، ويوازن ويقايس بفكر مستقيم حتى ينبلج له الحق واضحاً ، ولذلك كان من أدق العلماء وأقدرهم على استنباط المعانى من الأحاديث وآيات القرآن الكريم »[٢] .

٣ ـ **حضور البديهة** . . فقد قال أحد تلاميذه أبو حفص البزار : « كان ابن تيمية إذا شرع فى الدرس يفتح الله عليه أسرار العلوم وغوامض ولطائف ودقائق وختوم ونقول العلماء . . واستشهاداً بأفكار العرب ، وهو مع ذلك يجرى كما يجرى التيار ويفيض كما يفيض البحر » .

---

(١) (١٥٥) ضمن مجموعة .

(٢) ابن تيمية للشيخ أبى زهرة (١٩٧) .

والبديهة الحاضرة بالنسبة للخطيب والمناظر كأدوات الحرب السريعة للمقاتل ، وتصيب المقاتل ، وتقطع مفاصل القول ، وتربك الخصم حينئذ بهالا يتوقع ما يلطب فيه الجواب ، وليس عنده ذلك السلاح فيتردى ، أو يخرج من الميدان مهزوماً مدحوراً .

ولهذه الصفة كان خصوم ابن تيمية يتهيبون لقاءه ، ومن لا يعرفها فيه ، ويغتر بحجته إذا لقيه كان عبرة المعتبرين ، فيلقمه العالم الجليل الحجة ، وما انتصر عليه أحد فى ميدان القول ، وما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من محنة فى مصر ، أو فى الشام فى آخر حياته إلا بالتدبير ليلاً والاجتهاد فى ألا يسمع قوله ، ولو سمع قوله ما استطاعوا له كيدا .

٤ ـ **الاستقلال الفكرى** : ولعل هذه الصفة هى أبرز الصفات فى تكون علمه وشخصيته العلمية التى جعلت له مزايا خاصة ليست فى غيره من العلماء الذين عاصروه نعم كان فى كثير منهم فضل من الذكاء والحافظة الواعية ، ولكن لم يكن منهم من له ذلك الاستقلال الفكرى يدرس كتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف الصالح فى أى أمر يعرض له أو يسأل عنه ، فما يصل إليه يعتنقه ويدعو إليه ، لا يهمه أخالفه الناس أم وافقوه ، فهو ليس تابعاً كما يجرى على ألسنة علماء العصر ، وما يعتنقه الناس ، بل هو عبد للدليل وحده يسير وراءه ، ليس سيفه يسوقه الناس إلى الآراء ، بل هو سيفه للدليل وحده .

٥ ـ **قوة الفراسة** : فقد كان لقوة عقله ونفاذ بصيرته وحدة مداركه مع قوة الإحساس ينفذ نظره إلى قرارات النفوس فيدركها ، وإلى بواطن الأمور فيكشفها ، فكان الألمعى يظن كأنه قد رأى وسمع ، وبدت فراسته واضحة فى كل أمر تولاه ، رأى التتار وحالهم ففهم وسمع بذكاء نفسه أنهم تضعضعوا ، ولم يكونوا عند غزوهم الشام كما بدأوا بل أترفت نفوسهم ، فذهب بأسهم ، ولكن ماضيهم يرعب من يغزونهم فيهزمون بالرعب ، لا بفرط القوة ، رأى العبقرى ذلك فكان يقسم الأيمان

المغلطة ، بأن جنـد مصر والشـام لا محالـة منتصرون ، فإذا قال له الأخير ، قل ان شاء الله قال أقولها متحققا ، وهذا يدل على قوة فراسته ونفاذ بصيرته .

ورأى رجلاً من طلاب العلم يسير فى طرق دمشق كالحائر ، لأنه لم يكن معه ما ينفق ، فناداه ابن تيمية ووضع فى يده دراهم ، وقال إنفق منها وأخل خاطرك ، وما تحدث الشاب بحاجته ، ولكنها فراسة المؤمن وكرمه .

وغير هذه الصفات اجتمعت لتجعل منه ذلك العبقرى المجتهد العالم العلامة المفحص المحقق ابن تيمية .



من هو ابن تيمية :

هو الشيخ الإمام الربانى إمام الأئمة ومفتى الأمة وبحر العلوم سيد الحفاظ وفارس المعانى والألفاظ شيخ الإسلام : أحمد ابن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين ، أبى المحاسن عبد الحليم ، ابن الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام مجد الدين أبى البركات : عبد السلام بن أبى محمد عبد الله بن أبى القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن على بن عبد الله بن تيمية الحرانى نزيل دمشق ، وصاحب التصانيف التى لم يسبق إلى مثلها .

ولد شيخنا بحران يوم الاثنين عاشر وقيل ثانى عشر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ وسافر والده به وبإخوته إلى الشام عند جور التتار ، فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة ، لعدم الدواب ، فكاد العدو يلحقهم ووقفت العجلة فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به فنجوا وسلموا .

ولما قدم دمشق سمع الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى ، وسمع من الجمال يحيى بن الصيرفى ، وأحمد بن أبى الخير

والقاسم الأرملىّ . وغيرهم وغيرهم .

وعنى بالحديث وقرأ ونسخ وحفظ القرآن وأقبل على الفقه وقرأ العربية وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم فى النحو ، وأقبل على التفسير إقبالاً كليا . . وهذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة ، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه . وصنف الشيخ الكثير والكثير مما لا يعد ومن ذلك ماجمعه فى تفسير القرآن العظيم ، وكتاب الإيمان ، وكتاب الاستقامة فى مجلدين » وكتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام ، والسياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ، واقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم . . الخ .

ومرت بالشيخ سنون عجاف ومحن كثيرة من أحقاد المغرضين فصبر وانتصر ولايُنسى له كيف قاد الحرب ضد التتار وكيف نزل فى ميادين القتال .

وكانت المحنة الأخيرة فقد منع من الكتابة وهو بالسجن فبلغ الضيق أقصاه ، ولكنه لم يفل ذلك الضيق على ملك النفس الحرة الكريمة ، وذلك الفكر القوى المنطلق فى سماء الدين يحلق فيها ، فقد قبضه الله سبحانه وتعالى إليه فى العشرين من شوال سنة ٦٢٨ أى لم يمكث فى هذا الضيق نحو خمسة أشهر ، وكان ذلك عقب مرض لم يمهله أكثر من بضعة وعشرين يوماً .

ويوم جنازته كان يوما من أيام التاريخ فقد خرجت الدنيا وراءه تودع العالم النادر الذى لم نقف على مثله حتى عصرنا . . رحم الله الشيخ وأسكنه فسيح جناته .



قـواعـد الأديان :

قواعـد الأديان وجدناه بدار الكتب المصرية تحت رقم (٢٥٧٧) تصوف وأخلاق دينية . . . وقد كتب عليه « زسالتان فى قواعد الأديان » فزدنا عليه الرسالة الثالثة وأسميناه « قواعد الأديان » .

وقد نسخنا الرسالتين من المخطوطة وألحقنا بهما الرسالة الثالثة إذ أنها مكملة لهما مفيدة غاية الإفادة جابرة لما كان بهما من نقص .

واتبعنا بعد ذلك ما يلى : ـ

١ ـ خرجنا الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة

٢ ـ علقنا على ما يستحق من تعليق .

٣ ـ صححنا ما ورد بالأصل من تصحيف .

٤ ـ أثبتنا الأحكام التى أرادها الشيخ وأشار إليها فأوردناها كاملة فى الهامش .

٥ ـ ترجمنا للأعلام الواردة أسماؤهم فى المخطوطة .

٦ ـ ناقشنا بعض آراء معارضى الشيخ فى الهامش .

٧ ـ أعددنا هذه الدراسة عن الكتاب والشيخ . .

٨ ـ وضعنا فهارس عامة للكتاب .

رسائل ابن تيمية :

هذا وللشيخ رسائل أخرى مثل هاتين الرسالتين ذكرنا ظروف الكثير منها حيث أنها رسائل كانت تكتب لتنزل فى المعارك فأصبح من سماتها الحدة والغلظة ولم يكن هذا من طبع ولا سلوك الشيخ .

ورسائل الشيخ ومختصراته رغم ما فيها من حدة إلا أنها تعتبر موسوعة علمية شاملة من يقرأها ويدمن مطالعتها يصل إلى أعلى مستوى علمى وهى مع صغـرها إلا أنها تحوى فحوى الكلام ومقصد الكلام ونهاية البحوث والدراسات إذ أن كاتبها صاحب ألمعية علمية . . وزيادة فى

النفع رأينا أن نشير للقارىء ببعض رسائله وهى : ـ

ـ قاعدة فى الكلام على الممكن .

ـ قاعدة فى ذبائح أهل الكتاب .

ـ قاعدة فى تعليل الأفعال .

ـ قاعدة فى الكلام على العدو .

ورسالة كتبها إلى الشيخ شمس الدين الدباهى تسمى بالمدنية

ورسالة كتبها إلى الشيخ نصر المنيحى تسمى المصرية .

ورسالة كتبها إلى أهل البصرة .

ورسالة كتبها إلى القاضى شمس الدين السروجى ، قاضى الحنفية بمصر .

ورسائل إلى غيره من القضاة والعلماء .

ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ عدى بن مسافر ، تسمى بالعدوية .

ورسالة كتبها إلى بيت الشيخ جاكير ، وأرسل إليهم أجوبة فى مجلد غير الرسالة .

ورسالة كتبها إلى ملك قبرص فى مصالح المسلمين تتضمن علوماً نافعة .

وله رسائل إلى البحرين وإلى ملوك العرب .

وإلى ثغور الشام : إلى طرابلس وغيرها بمصالح تتعلق بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

ورسالة لأهل تدمر .

ورسالة إلى طبرستان وجيلان .

ورسائل للملوك : ملك مصر ، وملك حماة وغيرهما .

ورسائل إلى الأمراء الكبار .

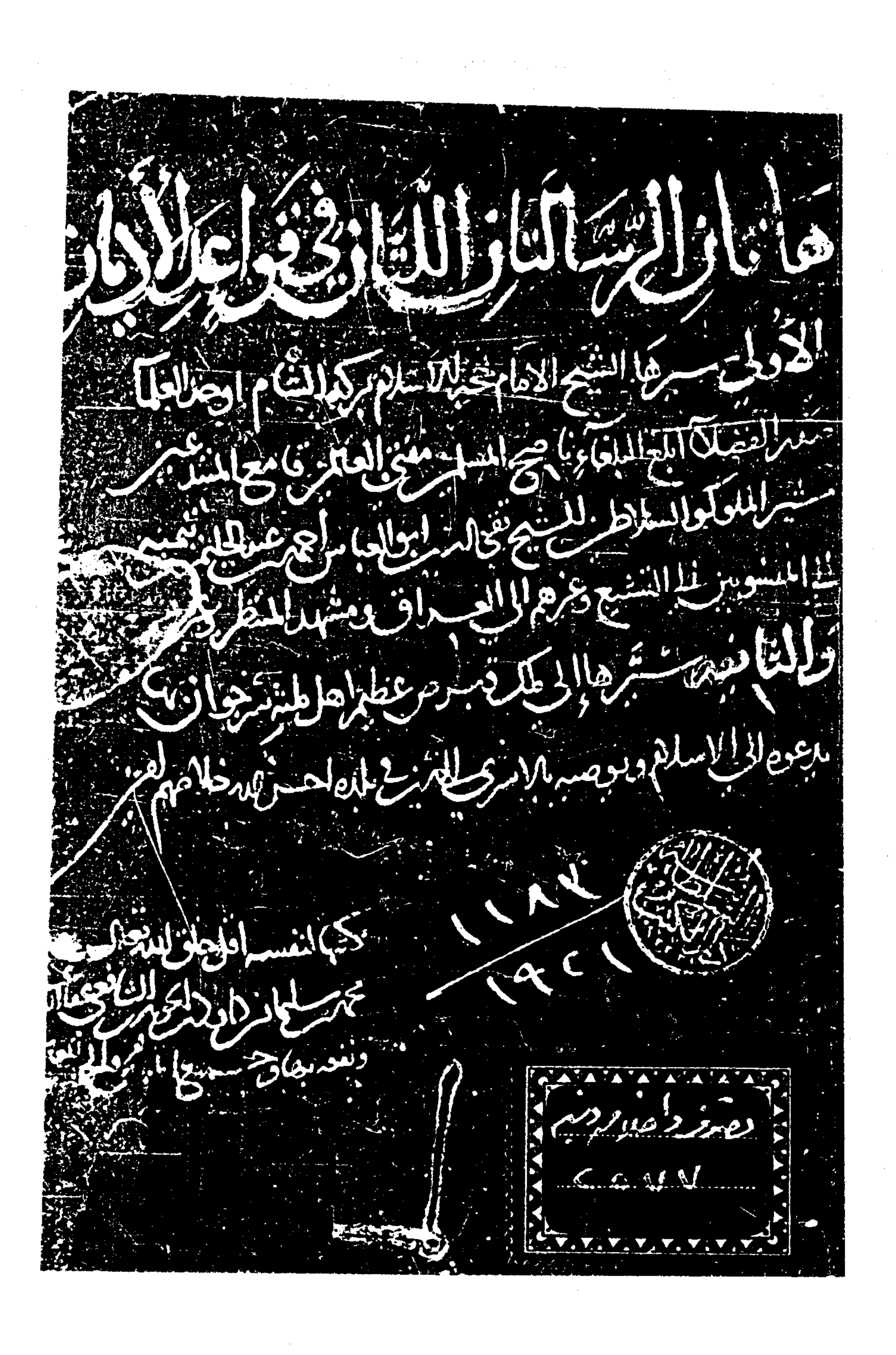
ورسائل كثيرة كتبها إلى العلماء من إخوانه من مصر إلى دمشق ومن دمشق إلى غيرها .

وكذا قواعد كثيرة جداً لا تُعد ، نسأل الله أن ينفع بها وأن يجعلها فى سجل أعماله . . ونفع الله المسلمين بهذه الرسائل الثلاث فى قواعد الأديان .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

إبراهيم محمد الجمل

غرة رمضان سنة ١٤٠١ هـ



هاتان الرسالتان اللتان في قواعد الأديان
الأولى سيرها الشيخ الإمام حجة الإسلام بركة الشام أوحد العلماء
سيد الفضلاء أبلغ البلغاء ناصح المسلمين مفتي العترة قامع المبتدعين
مبير الملوك والسلاطين للشيخ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
إلى المنسوبين إلى الشيخ عدي وغيرهم إلى العراق ومشهد المنتظر وغيره
والثانية سيرها إلى ملك قبرص عظيم أهل ملته سرجوان
يدعوه إلى الإسلام ويوصيه بالأسرى الذين في بلده أحسن الله خلاصهم

الصفحة الثانية من المخطوطة (اول الرسالة الأولى)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين هذه نسخة كتاب كتبه
الشيخ الامام العالم العامل مفتي الفرق علامة السنة بركة الشام تقية [illegible]
تقي الدين ابو العباس احمد بن تيمية رضي الله عنه ونفع به الى ملك قبرص من احمد بن تيمية الى [illegible]
عظيم اهل ملته ومن يحوط به عنايته من روسا الدين وعظما القسيسين والرهبان
والكتاب
والامرا واتباعهم سلام على من اتبع الهدى اما بعد فانا نحمد اليكم الله الذي لا اله الا هو
اله ابرهيم وال عمران ونساله ان يصلي على عباده المصطفين وانبيائه المرسلين
ويسلم على اولي العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الامم الذين خصوا باخذ الميثاق وهم
نوح وابرهيم وموسى وعيسى ومحمد كما سماهم الله تعالى في كتابه فقال شرع لكم
من الدين ما وصى به نوحا وما وصينا به ابرهيم وموسى وعيسى ان اقيموا الدين ولا تتفرقوا
فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب وقال
واذ اخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابرهيم وموسى وعيسى ابن مريم واخذنا منهم
ميثاقا غليظا ليسال الصادقين عن صدقهم واعد للكافرين عذابا اليما ونساله
ان يخص محمدا بافضل صلواته وتسليماته خاتم المرسلين وخطيبهم اذا وفدوا وامامهم
اذا اجتمعوا شفيع الخلائق يوم القيامة ذي المقام المحمود [illegible]
الذي بشر به عبد الله وكلمته وروحه التي القاها الى مريم ابنة عمران ذلك [illegible]
عليه السلام الوجيه في الدنيا والاخرة المقرب عند الله المرعوث نعت [illegible]
لما انحرف بنو اسرائيل فيما بعثه موسى عليه السلام [illegible]
الخاتم الجامع نعت الكمال المشتمل على الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين [illegible]
محاسن [illegible] الشرائع التي كانت قبله صلى الله عليه وسلم اجمعين [illegible]

آخر صفحة من المخطوطة

اما بعد فان الله [illegible] الخلق [illegible]

[illegible] فما امرهم به هو عبادته [illegible]

[illegible] صراطه المستقيم [illegible]

[illegible] لا انابه اليه والوصل [illegible] الذكر [illegible]

وكلف بحكم كلفه [illegible]

[illegible]

[illegible] طلاسم الكواكب السماوية [illegible]

ونقوم [illegible]

[illegible]

أولاً
رسالة ابن تيمية إلى الشيعة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الإمــام العــالم فريد عصره ، مفتى الفــرق ، شيخ الإســلام ، تقى الدين ابن تيمية أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام العالم شهاب الدين عبد الحليم ابن الشيخ الإمام العلامة مجد الدين عبد السلام بن تيمية رضى الله عنه وأرضاه وأعلى درجته .

هذا الكتاب إلى من يصل إليه من الإخوان المؤمنين الذين يتولون الله ورســولـه والــذين آمنـوا الــذين يقيمــون الصــلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعــون ، ومن يتــول الله ورســولـه والــذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . الذين يحبون الله ورسوله ، ومن أحبه الله ورسوله ، ويعرفون حق المتصلين برسول الله ما شرعه الله ورسوله ، فإن من محبة الله [1] وطــاعتـه محبة رسوله وطاعته ، ومن محبة رسوله وطاعته محبة من أحبه

---

(١) المحبـة : قال تعــالى « والــذين آمنــوا أشــد حباً لله » قال ابن القيم فى تفسيرهــا : فيها قولان : أحدهما : « الذين آمنوا أشد حباً لله » من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها ، ويعظمونها من دون الله . والثانى من محبة المشركـين بالأنداد وبالله . فإن محبة المؤمنين خالصة ومحبة أصحاب الأنداد وقد ذهبت أنـدادهم بقسط منهـا ، والمحبـة الخـالصة : أشد من المحبة المشتركة ، والقولان مرتبان على القولين فى قوله تعالى « يحبونهم كحب الله » فإن فيها قولان : أحـدهمـا : يحبـونهم كما يحبون الله . فيكون قد أثبت لهم محبة الله ولكنها محبة يشركون فيها مع الله أنداداً والثانى : أن المعنى تحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله . ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يرجح القول الأول ، ويقول : انما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم فى المحبة . ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له » .

مدارج السالكين بتصرف (٢١) ط السنة المحمدية .

الرسول وطاعة من أمر الرسول بطاعته ، كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [1] .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » [2] . أ . هـ .

وقال ﷺ فيما رواه عنه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه « إنما الطاعة فى المعروف » أ . هـ [3] .

---

(١) ٥٩ : النساء .

(٢) الحديث : أخرجه البخارى ومسلم والنسائى انظر جامع الأحاديث (٢٣١٧٠)

(٣) أخرجه البخارى (١٣/٢٠٣) فتح ، ومسلم (٦/١٥) وأبو داود (٢٦٢٥) والنسائى (٢/١٨٧) والطيالسى (١٠٩) وأحمد (١/٩٤) عن على وفى الحديث فوائد كثيرة أهمها أنه لا يجوز إطاعة أحد فى معصية الله تبارك وتعالى سواء فى ذلك الأمراء والعلماء والمشايخ ، ومنه يعلم ضلال طوائف من الناس الأولى : بعض المتصوفة الذين يطيعون شيوخهم ولو أمروهم بمعصية ظاهرة بحجة أنها فى الحقيقة ليست بمعصية ، وأن الشيخ يرى مالا يرى المريد ، وأعرف شيخاً من هؤلاء نصب نفسه مرشداً قص على أتباعه فى بعض دروسه فى المسجد قصة خلاصتها أن أحد مشايخ الصوفية أمر ليلة أحد مريديه بأن يذهب إلى أبيه فيقتله على فراشه بجانب زوجته ، فلما قتله ، عاد إلى شيخه مسروراً لتنفيذ أمر الشيخ فنظر اليه الشيخ وقال : اتظن أنك قتلت أباك حقيقة ؟ إنما هو صاحب أمك وأما أبوك فهو غائب ! ثم بنى على هذه القصة حكماً شرعيا بزعم فقال لهم : إن الشيخ إذا أمر مريديه بحكم مخالف للشرع فى الظاهر إن على المريد أن يطيعه فى ذلك ، قال ألا ترون إلى هذا الشيخ أنه فى الظاهر أمر الولد بقتل والده ولكنه فى الحقيقة إنما أمره بقتل الزانى بوالدة الولد ، وهو يستحق القتل شرعاً ولا يخفى بطلان هذه =

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فإنا نحمد إليكم الله الذى لاإله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شىء قدير ، ونصلى على إمام المتقين ، وخاتم النبيين محمد عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً .

أما بعد / .

تماسك المسلمين بشرعهم :

فإن الله سبحانه وتعالى بعث محمداً بالكتاب والحكمة ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ﴾ [2] .

= القصة من وجوه كثيرة :

أولاً : أن تنفيذ الحد ليس من حق الشيخ مهما كان شأنه ، وإنما هو من حق الأمير أو الوالى .

ثانيا : إنه لو كان له ذلك فلماذا نفذ الحد بالرجل دون المرأة وهما فى ذلك سواء .

ثالثاً : إن الزانى المحصن حكمه شرعاً القتل رجماً ، وليس القتل بغير الرجم .

ومن ذلك يتبين أن الشيخ قد خالف الشرع . عن الاحاديث الصحيحة (٢/١٤٤) .

والطائفة الثانية : المقلدة .

والطائفة الثالثة : الذين لا يطيعون ولاة الأمور فيما يشرعون للناس من نظم وقرارات مخالفة للشرع كالشيوعية وما شابهها .

(١) ١٦٤ : آل عمران .

(٢) ٢٣١ : البقرة .

وقال لأزواج نبيه « واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة »[1] والذى كان يتلوه هو ورسوله ﷺ فى بيوت أزواجه كتاب الله والحكمة . فكتاب الله هو القرآن ، والحكمة هى ما كان يذكره من كلامه ، وهى سننه ، فعلى المسلمين أن يتعلموا هذا وهذا .

وفى الحديث المشهور الذى رواه الترمذى وغيره عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « ستكون فتنة قلت : فما المخرج منها يارسول الله ؟ قال : كتاب الله ، فيه نبأ ماقبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم »[2] .

وقال الله فى كتابه ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[3] ، وقال فى كتابه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[4] فذم الذين تفرقوا أحزاباً وشيعاً ، وحمد الذين اتفقوا وصاروا جميعاً معتصمين بحبل الله الذى هو كتابه شيعة واحدة للأنبياء كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾[5] ، وإبراهيم هو إمام الأنبياء كما قال تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ

(١) ٣٤ : الأحزاب
(٢) الحديث مشهور رواه أصحاب السنة بإسناد جيد .
(٣) ١٠٣ آل عمران .
(٤) ١٥٩ : الأنعام .
(٥) ٨٣ : الصافات .

عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [١] .

وقال تعالى ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ إلى أن قال ﴿ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ [٢] .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أمته أن يقولوا إذا أصبحوا : « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » [٣] .

وقال النبى ﷺ « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، فلا ألفين رجلاً شبعان على أريكته يقول : بيننا وبينكم هذا القرآن ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه إلى ألا أوتيت القرآن ومثله معه » [٤] أ . هـ .

فهذا الحديث موافق لكتاب الله ، فإن الله ذكر فى كتابه أنه ﷺ يتلو الكتاب والحكمة ، وهى التى أوتيها مع الكتاب ، وقد أمر فى كتابه بالاعتصام بحبله واحدة ، لا شيعاً متفرقين ، وقال الله فى كتابه « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » [٥] أ . هـ .

---

(١) ١٢٤ : البقرة .
(٢) ١٢٠ : النحل .
(٣) الحديث أخرجه الدارمى (استئذان / ٥٤) وأحمد (٣ / ٤٠٦) .
(٤) الحديث اخرجه الامام أحمد فى مسنده (٤ / ١٣١) .
(٥) الحجرات : ٩ .

فجعل المؤمنين اخوة ، وأمر بالاصلاح بينهم بالعدل مع وجود الاقتتال والبغى .

وقال النبى ﷺ « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[1] أ . هـ .

وقال « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[2] أ . هـ وشبك بين أصابعه .

فهذه أصول الإسلام التى هى الكتاب والحكمة والاعتصام بحبل الله جميعاً واجب على أهل الإيمان للاستمساك بها .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ، ومسلم عن النعمان بن بشير وهو صحيح (٢٩٠) الجامع الصغير .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى موسى وهو صحيح انظر الجامع الصغير (٣١٧) .

خصائص أهـل البيت

أهـل البيت ؟

ولاريب أن الله قد أوجب فيها من حرمة خلفائه وأهل بيته والسابقين الأولين ، والتابعين لهم بإحسان ما أوجب ، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [(١)] .

وقد روى الإمام أحمد والترمذى وغيرهما عن أم سلمة : أن هذه الآية لما نزلت أدار النبى ﷺ كساءه على علىٍّ وفاطمة والحسن والحسين رضى الله عنهم فقـال : « اللهم هؤلاء أهـل بيتى فأذهب عنهم الـرجس وطهرهم تطهيراً » . وسنته تفسر كتاب الله وتبينه ، وتدل عليه ، وتعبر عنه . فلما قال : « هؤلاء أهل بيتى » مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه ، علمنا أن أزواجه وان كن من أهل بيته كما دل عليه القرآن ، فهؤلاء أحق بأن يكونوا أهل بيته ، لأن صلة النسب أقوى من صلة الصهـر ، والعرب تجعل هذا البيان للاختصاص بالكمال لا للاختصـاص بأصـل الحكم ، كقـول النبى ﷺ : « ليس المسكـين بالـطوّاف الـذى ترده اللقمـة واللقمتـان ، والتمـرة والتمرتان ، وإنما المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُتفطن له فيتصدق عليه ولا يسأل الناس إلحافاً » [(٢)] .

بين بذلك : أن هذا مختص بكمال المسكنة ، بخلاف الطواف فإنه لا تكمـل فيه المسكنـة ، لوجـود من يعـطيه أحياناً ، مع أنه مسكين أيضاً ، ويقال : هذا هو العالم ، وهذا هو العدو ، وهذا هو المسلم ،

---

(١) ٢٨ : الأحزاب .

(٢) الحديث أخرجه الشيخان وأحمد وأبو داود والنسائى عن ابن عمرو وهو صحيح كذا قال السيوطى فى الجامع الصغير (٢٧٢) .

لمن كمل فيه ذلك وإن شاركه غيره فى ذلك وكان دونه .

ونظير هذا [فى] الحديث مارواه مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى فقال « مسجدى هذا » يعنى مسجد المدينة . مع أن سياق القرآن فى قوله عن مسجد الضرار :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (١)

يقتضى أنه مسجد قباء . فإنه قد تواتر أنه قال لأهل قباء : « ما هذا الطهور الذى أثنى الله عليكم به » ؟ .

فقالوا : لأننا نستنجى بالماء ، لكن مسجده أحق بأن يكون مؤسساً على التقوى من مسجد قباء ، وإن كان كل منهما مؤسساً على التقوى ؟ وهو أحق أن يقوم فيه من مسجد الضرار ، فقد ثبت عنه ﷺ : أنه كان يأتى قباء كل سبت راكباً وماشياً ، فكان يقوم فى مسجده القيام الجامع يوم الجمعة ، ثم يقوم بقباء يوم السبت ، وفى كل منهما قد قام فى المسجد المؤسس على التقوى .

ولما بين سبحانه أنه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيته ويطهرهم تطهيراً ، دعا النبى ﷺ لأقرب أهل بيته وأعظمهم اختصاصا به ، وهم على وفاطمة ، رضى الله عنهما ، وسيدى شباب أهل الجنة ، جمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير ، وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبى ﷺ ، فكان فى ذلك ما دلنا على أن إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم نعمة من الله ، ليسبغها عليهم ، ورحمة من الله وفضل لم يبلغوهما بمجرد حولهم وقوتهم ، إذ لو كان كذلك لا ستغنوا بهما عن دعاء النبى ﷺ ، كما يظن من يظن أنه قد استغنى فى هدايته وطاعته عن إعانة الله تعالى له ، وهدايته اياه .

---

(١) التــوبة : ١٠٨ .

وقد ثبت أيضاً بالنقل الصحيح : أن هذه الآيات لما نزلت قرأها النبى ﷺ على أزواجه وخيرهن كما أمره الله ، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، ولذلك أقرهم ولم يطلقهن حتى مات عنهن ، ولو أردن الحياة الدنيا وزينتها لكان يمتعهن ويسرحهن كما أمره الله تعالى ، فإنه ﷺ أخشى الأمة لربه وأعلمهم بحدوده .

ولأجل مادلت عليه هذه الآيات من مضاعفة للأجور ورفع الوزر بلغنا عن الإمام على بن الحسين زين العابدين وقرة عين الإسلام أنه قال « إنى لأرجو أن يعطى الله للمحسن منا أجرين ، وأخاف أن يجعل على المسىء منا وزرين » .

وثبت فى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم أنه قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير يدعى « خم [1] » بين مكة والمدينة فقال : « وأهل بيتى » أذكركم الله فى أهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » [2] .

قيل لزيد بن أرقم : ومن أهل بيته ؟ قال : الذين حرموا الصدقة : آل على ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل عباس ، قيل لزيد : أكل هؤلاء أهل بيته ؟ قال نعم .

وقد ثبت عن النبى ﷺ من وجوه صحاح أن الله لما أنزل عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[3] .

سأل الصحابة : كيف يصلون عليه ، فقال : « قولوا : اللهم صل

---

(١) خم : هو بئر كلاب بن مرة انظر معجم البلدان (٢ / ٣٨٩)

(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده (٤ / ٣٦٧) .

(٣) ٥٦ : الأحزاب .

على محمـد ، وعـلى آل محمـد ، كما صليت على إبـراهيم ، وعلى آل إبــراهيم ، إنــك حميد مجيد ، وبـارك على محمـد ، كما باركت على إبراهيم ، وعلى آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد »[1] .

وفى حديث صحيح « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته »[2]

خصائص وسمات :

وثبت عنه أن ابنه الحسن لما تناول تمرة من تمر الصدقة قال له : كخ كخ ، أما علمت أنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة[3] وقال « ان الصدقة لاتحل لمحمد ولا لآل محمد »[4] .

وهـذا والله أعلم من التـطهير الذى شرعه الله لهم ، فإن الصدقة أوساخ الناس ، فطهرهم الله من الأوساخ ، وعوضهم بما يقيتهم من خمس الغنائم ، ومن الفىء الذى جعل منه رزق محمد حيث قال صلى الله عليه وسلم فيا رواه أحمد وغيره « بعثت بالسيف بين يدى الساعة ، حتى يعبـد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » أ . هـ .

ولهـذا ينبغى أن يكون اهتمامهم بكفاية أهل البيت الذين حرمت

---

(١) الحديث اخرجه الامام أحمد فى مسنده (٤ /٢٤٣ ، ٢٤٤) (٥ / ٢٧٤) .

(٢) الحديث رواه الامام احمد فى مسنده (٥ / ٣٧٤) .

(٣) الحـديث أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم عن أبى رافع وهو صحيح (٧٤) الجامع الصغير .

(٤) الحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبرانى عن ابن عمر انظر الجامع الصغير (١١٣) ط دار القلم .

عليهم الصدقة أكثر من اهتمامهم بكفاية الآخرين من الصدقة ، لاسيما إذا تعذر أخذهم من الخمس والفىء ، إما لقلة ذلك ، واما لظلم من يستولى على حقوقهم ، فيمنعهم إياها من ولاة الظلم ، فيعطون من الصدقة المفروضة ما يكفيهم إذا لم تحصل كفايتهم من الخمس والفىء .

أهــل الفــىء :

وعلى الآخذين من الفىء من ذوى القربى وغيرهم أن يتصفوا بما وصف الله به أهل الفىء فى كتابه حيث قال﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[1] الآيات

فجعل أهل الفىء ثلاثة أصناف . المهاجرين والأنصار ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] .

وذلك أن الفىء إنما حصل بجهاد المهاجرين والأنصار وإيمانهم وهجرتهم ونصرتهم ، فالمتأخرون إنما يتناولونه مخلفاً عن أولئك ، مشبهاً بتناول الوارث ميراث أبيه ، فإن لم يكن موالياً له لم يستحق الميراث ، فلا يرث المسلم الكافر ، فمن لم يستغفر لأولئك بل كان مبغضاً لهم خرج عن الوصف الذى وصف الله به أهل الفىء ، حتى يكون قلبه مسلماً لهم ، ولسانه داعياً لهم ، ولو فرض أنه صدر منهم ذنب محقق فإن الله يغفره له بحسناته العظيمة ، أو بتوبة تصدر منه أو يبتليه ببلاء يكفر به سيئاته ، أو يقبل فيه شفاعة نبيه وإخوته المؤمنين ، أو يدعو الله بدعاء يستجيبه له .

★★★

---

(١) ٧ : الحشر .

(٢) ١٠ : الحشر .

سب الصحابة :

وقد ثبت عن النبى ﷺ فى الصحاح من رواية أمير المؤمنين أبى طالب رضى الله عنه أن حاطب بن أبى بلتعة [1] كاتب كفار لما أراد النبى ﷺ أن يغزوهم غزوة الفتح ، فبعث إليهم امرأة معها كتاب يخبرهم فيه بذلك ، فجاء الوحى إلى النبى ﷺ بذلك ، فبعث علياً والزبير فأحضرا الكتاب ، فقال « ما هذا يا حاطب » ؟ فقال : والله يا رسول الله ما فعلت ذلك أذى ولا كفراً ، ولكن كنت امرءا ملصقا من قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من أصحابك لهم قرابات يحمون بها أهليهم فأردت أن أتخذ عندهم يداً أحمى بها قرابتى . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق . فقال « إنه شهد بدراً » ، وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » وأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [2] أ . هـ .

وثبت فى صحيح مسلم أن غلام حاطب هذا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله والله ليدخلن حاطب النار ، وكان حاطب يسىء إلى مماليكه . فقال النبى ﷺ : كذبت ، إنه قد شهد بدراً والحديبية ، وقال ﷺ : « لا يدخل النار واحد بايع تحت الشجرة » [3] أ . هـ .

فهذا حاطب قد تجسس على رسول الله ﷺ فى غزوة فتح مكة التى كان ﷺ يكتمها عن عدوه ، وكتمها عن أصحابه ، وهذا من الذنوب الشديدة جداً . وكان يسىء إلى مماليكه ، وفى الحديث المرفوع . « لن

---

(١) حاطب بن بلتعة أحد الصحابة عرف بهذه القصة

(٢) ١ : الممتحنة

(٣) الحديث : رواه أحمد فى مسنده (٣ / ٣٥٠) .

يدخل الجنة سيء الملكة » . ثم مع هذا لما شهد بدراً والحديبية غفر الله له ورضى عنه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات . فكيف بالذين هم أفضل من حاطب وأعظم إيماناً وعلماً وهجرة وجهاداً ، فلم يذنب أحد قريباً من ذنوبه ؟ !

ثم إن أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه روى هذا الحديث فى خلافته ، ورواه عنه كاتبه عبيد الله بن أبى رافع ، وأخبر فيه أنه هو الزبير ذهبا لطلب الكتاب من المرأة الظعينة ، وأن النبى ﷺ شهد لأهل بدر بما شهد ، مع علم أمير المؤمنين بما جرى ، ليكف القلوب والألسنة من أن تتكلم فيهم إلا بالحسنى ، فلم يأت أحد منهم بأشد مما جاء به حاطب ، بل كانوا فى غالب ما يأتون به مجتهدين ، وقد قال النبى ﷺ « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر »[2] وهذا حديث صحيح مشهور .

وثبت عنه أيضاً أنه لما كان فى غزوة الأحزاب فرد الله الأحزاب بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وأمر نبيه بقصد بنى قريظة قال لأصحابه : «لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة[3]» فأدركتهم الصلاة فى الطريق ، فمنهم قوم قالوا : لا نصليها إلا فى بنى قريظة ، ومنهم قوم قالوا : لم يرد منا تفويت الصلاة ، وإنما أراد المسارعة فصلوا فى الطريق فلم يعنف النبى ﷺ واحدة من الطائفتين .

وكانت سنة رسول الله ﷺ هذه موافقة لما ذكره الله تعالى كتابه حيث قال ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[4] . فأخبر

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده (١ / ٧ ، ١٢) .

(٢) الحديث : رواه أحمد فى مسنده (٢ / ١٨٧)

(٣) الحديث : اخرجه البخارى (مغازى ٣٠ ، خوف / ٥٠) .

(٤) ٧٨ : الأنبياء .

سبحانه وتعالى أنه خص أحد النبيين بفهم الحكم فى تلك القضية وأثنى على كل منهما ما آتاه الله من العلم والحكم .

فهكذا السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه كانوا فيما تنازعوا فيه مجتهدين طالبين للحق .

موقف الشيعـــة :

وقـد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « من يعش منكم بعدى فسيرى اختـلافـاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »[1] أ . هـ .

وروى عنه مولاه سفينة أنه قال : « الخلافة ثلاثون سنة ، ثم تصير ملكاً »[2] أ . هـ فكان آخر الثلاثين حين سلم سبط رسول الله ﷺ : الحسن بن على رضى الله عنهما الأمر إلى معاوية . وكان معاوية أول الملوك وفيه ملك ورحمة كما روى فى الحديث « ستكون خلافة نبوة ، ثم يكون ملك ورحمة ، ثم يكون ملك وجبرية ، ثم يكون ملك عضوض » أ . هـ[3] .

---

(١) الحديث : رواه الامام احمد (٤ / ١٢٦ ، ١٢٧)

(٢) الحـديث أخرجـه أبـو داود (٤٦٤٦ و ٤٦٤٧) والـترمـذى (٢/٣٥) والـطحـاوى فى مشكـل الأثـار (٤/٣١٣) وابن حبـان فى صحيحه (١٥٣٤ ، ١٥٣٥) موارد ، وابن أبى عاصم فى السنــة (ق ١٤/٢) والحـاكم (٣/٧١ و ١٤٤٥) وأحمد فى المسند (٥) ٢٢٠ و (٢٢) والرويانى فى مسنده (٢٥/١٣٦/١) وأبو يعلى (٣/١٥/٢) قال الترمذى حديث حسن .

(٣) الحديث روى نحوه أحمد (٤/٢٧٣) ، والطيالسى (٤٣٨) ، قال الهيثمى فى مجمـع الـوائد (٥/١٨٩) رواه أحمد والبزار ، أتم منه والطبرانى ببعض فى « الأوسط » ورجاله ثقات .

وقد ثبت عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه من وجوه أنه لما قاتل أهل الجمل لم يسب لهم ذرية ولم يغنم لهم مالاً ، ولا أجهز على جريح ، ولا اتبع مدبراً ، ولا قتل أسيراً وأنه صلى على قتلى الطائفتين بالجمل وصفين وقالوا « إخواننا بغوا علينا » . وأخبر أنهم ليسوا بكفار ولا منافقين ، واتبع فيما قاله كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، فإن الله سماهم اخوة ، وجعلهم مؤمنين فى الاقتتال والبغى كما ذكر فى قوله ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾

وثبت عن النبى ﷺ فى الصحاح أنه قال « تمرق مارقة على حين فرقة من المسلمين ، تقتلهم أولى الطائفتين بالحق » [٢] . وهذه المارقة هم أهل حروراء [٣] ، الذين قتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه وأصحابه لما مرقوا عن الإسلام ، وخرجوا عليه فكفروه ، وكفروا سائر المسلمين ، واستحلوا دماءهم وأموالهم .

وقد ثبت عن النبى ﷺ من طرق متواترة أنه وصفهم وأمر بقتالهم فقال : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقرآنه مع قرآنهم ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، لو يعلم الذين يقتلونهم مالهم على لسان محمد ﷺ لا تكلوا عن العمل » أ . هـ [١] .

---

(١) الحجرات : ٩ .

(٢) الحديث اخرجه مسلم (زكاة / ١٥٠ ، ١٥٢) وأبو داود (سنة / ١٢) (٣ / ٣٢ ، ٤٨) .

(٣) حروراء : بفتحتين وسكون الواو مشتقة من الريح الحارة : موضع بالقرب من الكوفة انظر معجم البلدان (٢/٢٤٥)

(٤) الحديث : اخرجه البخارى (ابنياء / ٦) مناقب (٢٥) مغازى (٦١) فضائل القرام (٣٦) ، أدب (٩٥) توحيد (٣٣) ، (٥٧) استتابة (٩٥) ومسلم (زكاة ١٤٢ ـ ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨) وأبو داود (سنة / ٢٨) والترمذى (فتن / ٢٤) والنسائى (زكاة / ٧٩) وتحريم (٢٦) وابن ماجة (مقدمة / =

فقتلهم على رضى الله عنه وأصحابه ، وسر أمير المؤمنين بقتلهم سروراً شديداً ، وسجد لله شكراً ، لما ظهر فيهم علامتهم وهو المخدج اليد ، الذى على يده مثل البضعة من اللحم ، عليها شعرات فاتفق جميع الصحابة على استحلال قتالهم ، وندم كثير منهم كابن عمر وغيره على ألا يكونوا شهدوا قتالهم مع أمير المؤمنين ، بخلاف ما جرى فى وقعة الجمل وصفين ، فإن أمير المؤمنين كان متوجعاً لذلك القتال ، متشكياً مما جرى ، فيراجع هو وابنه الحسن القول فيه ، ويذكر له الحسن أن رأيه ألا يفعله ، فلا يستوى ما سر قلب أمير المؤمنين وأصحابه وغبطه به من لم يشهده ، مع مما تواتر عن النبى ﷺ فيه وساءه ، وساء قلب أفضل أهل بيته ، حب النبى ﷺ الذى قال فيه « اللهم إنى أحبه فأحبه ، وأحب من يحبه »[1] وإن كان أمير المؤمنين هو أولى بالحق ممن قاتله فى جميع حروبه .

ولا يستوى القتلى الذين صلى عليهم وسماهم إخواننا ، والقتلى الذين لم يصل عليهم ، بل قيل له : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾[2] فقال : هم أهل حروراء .

فهذا الفرق بين أهل حروراء وبين غيرهم الذى سماه أمير المؤمنين فى خلافته بقوله وفعله موافقاً فيه لكتاب الله وسنة نبيه هو الصواب الذى لا معدل عنه لمن هدى رشده ، وان كان كثيراً من علماء السلف والخلف لا يهتدون لهذا الفرقان ، بل يجعلون السيرة فى الجميع واحدة فإما أن

= ١٢) والدارمى (مقدمة / ٢١) ومالك فى الموطأ (١٠) وأحمد (١ / ٨٨ ، ٩٢ ، ١٣١ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ، ٢٥٦ .

(١) الحديث : اخرجه الامام أحمد فى مسنده (٢ / ٢٤٩ ، ٣٣١) ونحوه (٤ / ٢٩٢) .

(٢) ١٠٤ : الكهف .

يقصروا بالخوارج عما يستحقونه من البغض واللعنة والعقوبة والقتل وإما أن يزيدوا على غيرهم ما يستحقونه من ذلك .

★★★

الضــــلال :

وسبب ذلك قلة العلم والفهم لكتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، وسيرة خلفائه الراشدين المهديين ، وإلا فمن استهدى الله واستعانه وبحث عن ذلك ، وطلب الصحيح من المنقول ، وتدبر كتاب الله ، وسنة نبيه ، وسنة خلفائه ، لا سيما سيرة أمير المؤمنين الهادى المهدى التى جرى فيها ما اشتبه على خلق كثير فضلوا بسبب ذلك ، إما غلوا فيه ، وإما جفاء عنه ، كما روى عنه قال : « يهلك فى رجلان : محب غال يقرظنى بما ليس فى ومبغض قالٍ يرمينى بما نزهنى الله منه » أ . هـ [1] .

وحد ذلك وملاك ذلك شيئان : طلب الهدى ، ومجانبة الهوى ، حتى لا يكون الإنسان ضالاً وغاوياً ، بل مهتدياً راشداً ، قال الله تعالى فى حق نبيه ﷺ ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [2] .

فوصفه بأنه ليس بضال وهو الجاهل ، ولا غاو ، وهو الظالم ، فإن صلاح العبد فى أنه يعلم الحق ويعمل به ، فمن لم يعلم الحق فهو ضال عنه ، ومن علمه فخالفه واتبع هواه فهو غاو ، ومن علمه وعمل به كان من أولى الأيدى عملاً ، ومن أولى الأبصار علماً ، وهو الصراط المستقيم الذى أمرنا الله سبحانه فى كل صلاة أن نقول ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

---

(١) الحديث : اخرجه الامام احمد فى مسنده (١ / ١٦٠) .

(٢) أول النجم .

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[1].

فالمغضوب عليهم : الذين يعرفون الحق ولا يتبعونه كاليهود ، **والضالون** : الذين يعملون أعمال القلوب والجوارح بلا علم كالنصارى . ولهذا وصف الله اليهود بالغواية فى قوله ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾[2].

ووصف العالم الذى لم يعمل بعلمه بذلك فى قوله تعالى ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[3].

ووصف النصارى بالضلال فى قوله تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾[4].

ووصف بذلك من يتبع هواه بغير علم حيث قال ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾[5].

وأخبر أن من اتبع هداه المنزل فإنه لا يضل كما ضل الضالون ولا يشقى كما شقى المغضوب عليهم فقال ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾[6].

---

(١) من فاتحة الكتاب .

(٢) ١٤٦ : الأعراف .

(٣) ١٧٥ : الأعراف .

(٤) ٧٧ : المائدة .

(٥) ١١٩ : الأنعام .

(٦) ١٢٣ : طه .

قال ابن عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل فى الدنيا ، ولا يشقى فى الآخرة .

ومن تمام الهداية : أن ينظر المستهدى فى كتاب الله ، وفيما تواتر من سنة نبيه ، وسنة الخلفاء ، وما نقله الثقات الأثبات ، ويميز بين ذلك وبين ما نقله من لا يحفظ الحديث ، أو يتهم فيه بكذب لغرض من الأغراض فإن المحدث بالباطل إما أن يتعمد الكذب ، أو يكذب خطأ لسوء حفظه أو نسيانه أو لقلة فهمه وضبطه .

ثم إذا حصلت « للمستهدى » المعرفة بذلك تدبر ذلك ، وجمع بين المتفق منه ، وتدبر المختلف منه ، حتى يتبين له أنه متفق فى الحقيقة وان كان الظاهر مختلفاً ، أو أن بعضه راجح يجب اتباعه ، والآخر مرجوح ليس بدليل فى الحقيقة ، وان كان فى الظاهر دليلاً .

أما غلط الناس فلعدم التمييز بين ما يعقل من النصوص والآثار ، أو يعقل بمجرد القياس والاعتبار ، ثم إذا خالط الظن والغلط فى العلم هوى النفوس ومناهما فى العمل صار لصاحبها نصيب من قوله تعالى ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (1) .

وهذا سبب ما خلق الإنسان عليه من الجهل فى نوع العلم ، والظلم فى نوع العمل ، فبجهله يتبع الظن ، وبظلمه يتبع ما تهوى الأنفس ، ولما بعث الله رسله وأنزل كتبه ، لهدى الناس وإرشادهم ، صار أشدهم اتباعاً للرسل أبعدهم عن ذلك ، كما قال تعالى ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ

(1) ٢٣ : النجم .

إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(٢١٣) ولهـذا صار ما وصـف الله بن الإنسـان لا يخص غير المسـلمـين منهـم ، ولا يخص طائـفـة من الأمـة ، لكـن غير المسلمين أصابهم ذلك فى أصول الإيمان التى صار جهلهم وظلمهم فيهـا كفراناً وخسراناً مبيناً ، ولذلك من ابتدع فى أصول الدين بدعة جليلة أصابه من ذلك أشد مما يصيب من أخطأ فى أمر دقيق أو أذنب فيه ، والنفوس لهجة بمعرفة محاسنها ، ومساوىء غيرها [٢] .

وأما العالم العادل فلا يقول إلا الحق ، ولايتبع إلا إياه ، ولهذا من يتبع المنقول الثابت عن النبى ﷺ وخلفائه وأصحابه وأئمة أهل بيته ، مثل الإمام على بن الحسين زين العابدين ، وابنه الإمام أبى جعفر محمد بن على الباقر وابنه الإمام أبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق شيخ علماء الأمـة ، ومثل أنس بن مالك ، والثورى وطبقتهما ، وجد ذلك جميعه متفقاً مجتمعاً فى أصول دينهم ، وجماع شرائعهم ، ووجد فى ذلك ما يشغله وما يغنيه مما أحدثه كثير من المتأخرين من أنواع المقالات التى تخالف ما كان عليه أولئك السلف .

وهؤلاء المتـأخـرون من ينتصب لعـداوة آل بيت رسول الله ﷺ ، ويبخسهم حقوقهم ويؤذيهم ، أو ممن يغلوا فيهم غير الحق ، ويفترى عليهم الكـذب ويبخس السابقين والطائعين حقوقهم ، ورأى أن فى المـأثور عن أولئك السلف فى باب التوحيد والصفات ، وباب العدل والقدر ، وباب الإيمان والأسماء والأحكام ، وباب الوعيد والثواب ،

---

(١) ٢١٣ : البقـرة .

(٢) لأن داخل النفس طبعها وطبعها يريد طلاوتها وحسنها ولا يريد غير ذلك لذا فإن النفس كما ذكر ربنا « أمارة بالسوء » دائماً وميالة إلى الفساد ومن فسادها ما ذكره الشيخ من كونها لهجة بمعرفة محاسنها ومساوىء غيرها .

والعذاب ، وباب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما يتصل به من حكم الأمـراء أبرارهم وفجارهم ، وحكم الرعية معهم ، والكلام فى الصحابة والقرابة مما يبين لكل عاقل عادل أن السلف المذكورين لم يكن بينهم من النزاع فى هذه الأبواب إلا من جنس النزاع الذى أقرهم عليه الكتـاب والسنة كما تقدم ذكره ، وأن البدع الغليظة المخالفة للكتاب والسنة ، واتفاق أولى الأمر الهداة المهتدين إنما حدثت من الأخلاف ، وقد يعزون بعض ذلك إلى بعض الأسلاف تارة بنقل غير ثابت ، وتارة بتأويل لشىء من كلامهم متشابه .

★ ★ ★

ثم إن من رحمة الله قل أن ينقل عنهم شىء من ذلك إلا وفى النقول الصحيحة الثابتة عنهم للقول المحكم الصريح ما يبين غلط الغالطين عليهم فى النقل أو التأويل ، وهذا لأن الصراط المستقيم فى كل الأمة بمنـزلـة الصراط فى الملك ، فكـمال الإسـلام هو الـوسط فى الأديان والملك ، كما قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [(١)] لم ينحرفوا انحراف اليهود والنصارى والصابئين .

فكـذلـك أهـل الاستقـامـة ولزوم سنة رسول الله ﷺ ، وما عليه السلف ، تمسكـوا بالوسط ، ولم ينحرفوا إلى الأطراف ، فاليهود مثلاً جفوا فى الأنبياء والصديقين حتى قتلوهم وكذبوهم ، كما قال الله تعالى ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [(٢)] والنصارى غلوا فيهم حتى عبدوهم كمـا قـال تعـالى ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ [(٣)] .

---

(١) ١٤٣ : البقرة .
(٢) ٨٧ : البقرة .
(٣) ١٧١ : النساء .

واليهود انحرفوا فى النسخ حتى زعموا أنه لا يقع من الله أو لا يجوز عليه ، كما ذكر الله عنهم إنكاره فى القرآن حيث قال ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾ [١] والنصارى قابلوهم فجوزوا للقيسين والرهبان أن يوجبوا ما شاءوا ، ويحرموا ما شاءوا وكذلك تقابلهم فى سائر الأمور .

فهدى الله المؤمنين إلى الوسط ، فاعتقدوا فى الأنبياء ما يستحقونه ، ووقروهم وعزروهم وأحبوهم وأطاعوهم واتبعوهم ، ولم يردوهم كما فعلت اليهود ، ولا أطروهم ولا غلوا فيهم فنزلوهم منزلة الربوبية كما فعلت النصارى . وكذلك فى النسخ ، جوزوا أن ينسخ الله ، ولم يجوزوا لغيره أن ينسخ ، فإن الله له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره .

وهكذا أهل الاستقامة فى الإسلام المعتصمون بالحكمة النبوية ، والعصمة الجماعية [٢] متوسطون فى باب التوحيد والصفات بين النفاة والمعطلة وبين المشبهة الممثلة ، وفى باب القدر والعدل والأفعال بين القدرية [٣] والجبرية [٤] والقدرية المجوسية [٥] ، وفى باب الأسماء

---

(١) ١٤٢ : البقرة .

(٢) الجماعية : أى أهل السنة والجماعة الذين يحب بعضهم بعضاً لله ومن أجله وفيه . .

(٣) القدرية الذين يتكلمون فى القدر وتنقسم هذه الفرقة إلى أقسام كثيرة انظر « البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان » للشيخ عباس بن منصور السلفى الحنبلى ط دار التراث العربى (٢٦) .

(٤) الجبرية : وهو الذين يقولون بالجبر والاختيار أى القضاء والقدر .

(٥) المجوسية : وهم عباد النار قالوا : لأنها أعظم شىء فى الدنيا ، ويسجدون للشمس إذا طلعت وينكرون نبوة آدم ونوح عليهما السلام وقالوا : لم يرسل الله عز وجل إلا رسولاً واحداً لا ندرى من هو؟ ويستحلون نكاح الأمهات =

والأحكام بين من أخرج أهل المعاصى من الإيمان بالكلية كالخوارج وأهل المنزلة ، وبين من جعل إيمان الفساق كإيمان الأنبياء والصديقين كالمرجئة والجهمية [١] .

وفى باب الوعيد والثواب والعقاب بين الوعيد بين الذين لا يقولون بشفاعة نبينا لأهل الكبائر ، وبين المرجئة الذين لا يقولون بنفوذ الوعيد .

وفى باب الإمامة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بين الذين يوافقون الولاة على الإثم والعدوان ، ويركنون إلى الذين ظلموا ، وبين الذين لا يرون أن يعاونوا أحداً على البر والتقوى ، لا على جهاد ولا جمعة ولا أعياد إلا أن يكون معصوماً ، ولا يدخلوا فيما أمر الله به ورسوله إلا فى طاعة من لا وجود له .

فالأولون يدخلون فى المحرمات ، وهؤلاء يتركون واجبات الدين

=والبنات والأخوات وسائر الحرمات ويتطهرون بأبوال البقر تديناً البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان ط دار التراث العربى (٥٧) .

(١) هم أصحاب جهم بن صفوان السمرقندى ، كان فى زمان صغار التابعين ، وما علمت روى شيئاً لكنه زرع شراً عظيماً قاله الذهبى فى الميزان وإليه نسبوا ، وكان يقول هو وفرقته : إن الإيمان هو المعرفة بالقلب بالله ورسله ، وبجميع ما جاء به من عنده فحسب ، وإن لم يكن مع ذلك اقرار باللسان ولا عمل بالجوارح فى تأدية فريضة ولا طاعة ، وإن إيمانهم بذلك كإيمان جبريل عليه السلام ، وإن من تكلم كلمة كفر مثل أن يقول : ان لله شريكاً أو لداً أو صاحبة وهو يعتقد خلافه فهو مؤمن لا يضره ذلك .

ويقولون : ان الله تعالى ليس هو شيئاً وان علم الله تعالى محدث أحدثه لنفسه بعد أن لم يكن علماً ، وكذلك قالوا فى القدرة . وأن الجنة والنار لم تخلق بعد ، وأنهما إذا خلقا يفنيان ويغنى من فيهم . . الخ من الأقوال الفاسدة والمعتقدات التى قامت على الوهم والإغراق فى عالم الخيال . . انظر السابق (١٨) .

وشرائع الإسلام ، وغلاتهم يتركونها لأجل موافقة من يظنونه ظالماً وقد يكون كاملاً فى علمه وعدله .

فى أوقات الشدة :

وأهل الاستقامة والاعتدال يطيعون الله ورسوله بحسب الإمكان ، فيتقون الله ما استطاعوا ، وإذا أمرهم الرسول بأمر أتوا منه ما استطاعوا ، ولا يتركون ما أمروا به لفعل غيرهم ما نهى عنه ، بل كما قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ [1] ولا يعاونو أحداً على معصية ، ولا يزيلون المنكر بما هو أنكر منه ، ولا يأمرون بالمعروف إلا بالمعروف ، فهم وسط فى عامة الأمور ، ولهذا وصفهم النبى ﷺ بأنهم الطائفة الناجية كما ذكر اختلاف أمته وافتراقهم [2] ومن ذلك أن اليوم الذى هو يوم عاشوراء الذى أكرم الله فيه سبط نبيه ، وأحد سيدى شباب أهل الجنة بالشهادة على أيدى من قتله من الفجرة الأشقياء ، وكان ذلك مصيبة عظيمة من أعظم المصائب الواقعة فى الإسلام .

وقد روى الإمام أحمد وغيره عن فاطمة بنت الحسين وقد كانت قد شهدت مصرع أبيها ، عن أبيها الحسين بن على رضى الله عنهم ، عن جده رسول الله ﷺ أنه قال « ما من رجل يصاب بمصيبة فيذكر مصيبته ، وإن قدمت ، فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب بها » [3] ا . هـ .

---

(١) ١٠٥ : المائدة .

(٢) فى الحديث « افترقت اليهود على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة يعنى بهم أهل السنة والجماعة كما ورد فى الروايات .

(٣) الحديث : رواه الامام أحمد (٦ / ٨٨) (٦ / ١١٤) ، (٦ / ١٢٠) .

فقد علم الله أنه مثل هذه المصيبة العظيمة سيتجدد ذكرها مع تقادم العهد ، فكان من محاسن الإسلام أن روى هذا الحديث المصيبة والمصاب به أولاً ولا ريب أن ذلك إنما فعله الله كرامة للحسين رضى الله عنه ، ورفعاً لدرجته ومنزلته عند الله ، وتبليغاً له منازل الشهداء ، وإلحاقاً له بأهل بيته الذين ابتلوا بأصناف البلاء ، ولم يكن الحسن والحسين حصل لهما من الابتلاء ما حصل لجدها ولأمهما وبهما ، لأنهما ولدا فى عز الإسلام ، وتربيا فى حجور المؤمنين ، فأتم الله نعمته عليهما بالشهادة ، أحدهما مسموماً ، والآخر مقتولاً ، لأن الله عنده من المنازل العالية فى دار كرامته مالا ينالها إلا أهل البلاء كما قال النبى ﷺ وقد سئل : أى الناس أشد بلاءً ؟ فقال « الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه ، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة »أ . هـ [1] .

وشقى بقتله من أعان عليه ، أو رضى به ، فالذى شرعه الله للمؤمنين عند الإصابة بالمصائب وإن عظمت أن يقولوا : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد روى الشافعى فى مسنده أن النبى ﷺ لما مات وأصاب أهل بيته من المصيبة ما أصابهم ، سمعوا قائلاً يقول : ياآل بيت رسول الله ، إن

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٤) وابن سعد (٢/٢٠٨) والحاكم (٤/٣٠٧) من طريق هشام بن سعد بن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال الحاكم : « صحيح على شرط مسلم » ووافقه الذهبى وهو كما قالا « وله شاهد آخر مختصر وهو : « إن من أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » رواه أحمد (٦/٣٦٩) والمحاملى فى الأمانى (٣/٤٤/٣) . وإسناده حسن .

فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ومدركاً من كل فائت ، فبـالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب . . فكانوا يرونه الخضر جاء يعزيهم بالنبى ﷺ .

فأما اتخاذ المآتم فى المصائب ، واتخاذ أوقاتها مآتم ، فليس فى دين الإسـلام ، وهو أمر لم يفعله رسول الله ﷺ ، ولا أحد من السابقين الأولـين ، ولا من التابعين لهم بإحسان ، ولا من عادة أهل البيت ، ولا غيرهم ، وقـد شهد قتل على أهل بيته ، وشهد مقتل الحسين من شهده من أهل بيته وقد مرت على ذلك سنون كثيرة ، وهم متمسكون بسنـة رسـول الله ﷺ ، لا يحدثـون مأتماً ولا نياحة [1] . بل يصبرون ويسترجعون كما أمر الله ورسوله ، أو يفعلون مالا بأس به من الحزن والبكاء عند قرب المصيبة . قال النبى ﷺ « ما كان من العين والقلب فمن الله ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » [2] أ . هـ .

وقال : « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » [3] أ . هـ يعنى مثل قول المصاب : يا سنداه ، يا ناصراه ، يا عضداه .

وقال « إن النائحة إذا لم تتب قبل موتها فإنها تلبس يوم القيامة درعاً من جرب وسربالاً من قطران » [4] . وقال « لعن الله النائحة والمستمعة إليها » [5] .

---

(١) ما ورد فى ذلك .

(٢) الحديث : رواه الإمام أحمد فى مسنده (١ / ٢٣٨) .

(٣) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (١ / ٤٥٦) ونحوه (١ / ٤٤٢) ونحوه (١ / ٣٨٦) ونحوه (١ / ٤٦٥) ونحوه (١ / ٤٣٢) .

(٤) الحديث : روى نحوه ابو يعلى وابن عدى عن أبى هريرة قال السيوطى فى الجامع الصغير حسن (١٠٧) .

(٥) الحديث : اخرجه الامام أحمد فى مسنده (٣ / ٦٥) .

وقد قال فى تنزيله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] ، وقد فسر النبى ﷺ قوله : « ولا يعصينك فى معروف » بأنها النياحة .

وتبرأ النبى ﷺ من الحالقة والصالقة .

والحالقة : التى تحلق شعرها عند المصيبة ، والصالقة . التى ترفع صوتها عند المصيبة وقال جرير بن عبد الله : كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنعهم الطعام للناس من النياحة ، وأما السنة : أن يُصنع لأهل الميت طعام ، لأن مصيبتهم تشغلهم ، كما قال النبى ﷺ لما نعى جعفر بن أبى طالب لما استشهد بمؤتة قال : « اصنعوا طعاماً فقد جاءهم ما يشغلهم »[1] . أ . هـ .

وهكذا ما يفعل قوم آخرون يوم عاشوراء من الاكتحال والاختضاب أو المصافحة والاغتسال ، فهو بدعة أيضاً لا أصل لها ، ولم يذكرها أحد من الأئمة المشهورين ، وإنما روى فيها حديث « من اغتسل يوم عاشوراء لم يمرض تلك السنة ، ومن اكتحل يوم عاشوراء لم يرمد ذلك العام[2] »، ونحو ذلك ، ولكن الذى يثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه صام يوم عاشوراء ، وأمر بصيامه وقال : « صومه يكفر سنة »[3] وقرر النبى ﷺ أن الله أنجى فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، وروى أنه كان فيه حوادث الأمم . . فمن كرامة الحسين أن الله

---

(١) ١٢ : الممتحنة .

(٢) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (١ / ٢٠٥) .

جعل استشهاده فيه .

وقد يجمع الله فى الوقت شخصاً أو نوعاً من النعمة التى توجب شكراً ، أو المحنة التى توجب صبراً ، كما أن سابع عشر شهر رمضان فيه كانت وقعة بدر ، وفيه كان مقتل على . . وأبلغ من ذلك : أن يوم الاثنين فى ربيع الأول فيه مولد النبى ﷺ وفيه هجرته وفيه وفاته .

والعبد المؤمن يبتلى بالحسنات التى تسره ، والسيئات التى تسوؤه فى الوقت الواحد ، ليكون صباراً شكوراً ، فكيف إذا وقع مثل ذلك فى وقتين متعددين من نوع واحد .

ويستحب صوم التاسع والعاشر ، ولا يستحب الكحل ، والذين يصنعونه من الكحل من أهل الدين لا يقصدون به مناصبة أهل البيت وإن كانوا مخطئين فى فعلهم ، ومن قصد منهم أهل البيت بذلك أو غيره ، أو فرح أو استشفى بمصائبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

فقد قال النبى ﷺ . « والذى نفسى بيده لا يدخلون الجنة حتى يحبوكم من أجلى »[1] لما شكى إليه العباس أن بعض قريش يجفون بنى هاشم وقال : « وإن الله اصطفى قريشاً من بنى كنانة ، واصطفى بنى هاشم من قريش ، واصطفانى من بنى هاشم . » وروى عنه أنه قال « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبونى بحب الله ، وأحبوا أهل بيتى لحبى »[2] أ . هـ وهذا باب واسع يطول القول فيه .

خـــرافـــات :

وكان سبب هذه المواصلة أن بعض الإخوان قدم بورقة فيها ذكر

---

(١) الحديث: رواه نحوه الحاكم (٣/ ١٥٠) وقريب منه الطيالسى انظر جامع الأحاديث (٢٤٦٣٥)

(٢) الحديث : رواه أحمد فى مسنده (٤ / ١٠٧) .

النبى ﷺ ، وذكر سادة أهل البيت ، وقد أجرى فيها ذكر النذور لمشهد المنتظر ، فخوطب من فضائل أهل البيت وحقوقهم بما سر قلبه ، وشرح صدره ، وكل ما ذكر بعض الواجب ، فإن الكلام فى هذا طويل ، ولم يحتمل هذا الحامل أكثر من ذلك . وخوطب فيما يتعلق بالأنساب والنذور بما يجب فى دين الله ، فسأل المكاتبة بذلك إلى من يذهب إليه من الإخوان ، فإن النبى ﷺ قال « الدين النصيحة » قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم »[1] .

أما ورقة الأنساب والتواريخ ففيها غلط فى مواضع متعددة ، مثل ذكر أن النبى ﷺ توفى فى صفر ، وأنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن عمرو بن العلاء بن هاشم ، وأن جعفر الصادق توفى فى خلافة الرشيد ، وغير ذلك .

فإنه لا خلاف بين أهل العلم أن النبى ﷺ توفى فى شهر ربيع الأول ، شهر مولده ، وشهر هجرته ، وأنه توفى يوم الاثنين ، وفيه أنزل عليه ، وجده هاشم بن عبد مناف ، وانما كان هاشم يسمى عمراً ، ويقال له : عمرو العلا ، كما قال الشاعر .

وأن جعفراً أبا عبد الله توفى سنة ثمان وأربعين فى إمارة أبى جعفر المنصور ، وأما المنتظر فقد ذكر طائفة من أهل العلم بأنساب أهل البيت أن الحسن بن على العسكرى لما توفى بعسكر سامراء ولم يعقب ولم ينسل وقال من أثبته : إنه لما توفى سنة ستين ومائتين كان عمره سنتين أو أكثر من ذلك بقليل ، وأنه غاب من ذلك الوقت ، وأنه من ذلك الوقت حجة الله على أهل الأرض ، لا يتم الإيمان إلا به ، وأنه هو المهدى الذى أخبر به النبى ﷺ ، وأنه يعلم كل ما يفتقر إليه فى الدين .

---

(١) الحديث : اخرجه الامام احمد فى مسنده (١ / ٣٥١) ، (٢ / ٢٩٧) (٤ / ١٠٢) .

وهـــذا موضـــع ينـبغى للمسلم أن يتثبت فيه ، ويستهـــدى الله ويستعينـه ، فإن الله قد حرم القـول بغـير علم ، وذكر أن ذلك من خطوات الشيطان وحـرم القـول المخـالف للحق ، ونصوص التنزيل شاهدة بذلك ، ونهى عن اتابع الهوى .

فأما المهدى الذى بشر به النبى ﷺ فقد رواه أهل العلم العالمون بأخبار النبى ﷺ الحافظون لها ، الباحثون عنها وعن رواتها ، مثل أبى داود ، والترمذى وغيرهما ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده .

فعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ :

« لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً من أهل بيتي ، يواطىء اسمه اسمي ، واسم أبيه اسم أبى ، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً »[1] أ . هـ .

وروى هذا المعنى من حديث أم سلمة وغيرها .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال « المهدى من ولد ابنى هذا » .

وأشار إلى الحسن[2] .

وقال ﷺ « يكون فى آخر الزمان خليفة يحثو المال حثوا »[3] . وهذا حديث صحيح .

فقـد أخبر النبى ﷺ أن اسمه محمد بن عبد الله ، ليس محمد بن الحسن ، ومن قال : إن أبا جده الحسين ، وإن كنيته الحسين أبو عبد الله فقد جعل الكنية اسمه ، فما يخفى على من يخشى الله أن هذا تحريف الكلم عن مواضعه ، وأنه من جنس تأويلات القرامطة .

وقـول أمير المؤمنين صريح فى أنه حسنى لا حسينى ، لأن الحسن

---

(١) الحديث : أخرجه أبو داود عن ابن مسعود . جامع الأحاديث (١٧٦٨٥)

(٢) الحديث : روى نحوه الامام أحمد فى مسنده (١ / ٨٤)

(٣) الحديث : رواه الامام احمد فى مسنده (٣ ـ ٥ ، ٣٨ ، ٣٣٣)

والحسين مشبهان من بعض الوجود بإسماعيل وإسحاق ، وإن لم يكونا نبيين ولهذا كان النبى ﷺ يقول لهما « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة » [١] .

ويقول : « إن إبراهيم كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق » . وكان إسماعيل هو الأكبر والأحلم ، ولهذا قال النبى ﷺ وهو يخطب على المنبر والحسن معه على المنبر « ان ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » [٢] أ . هـ .

فكما أن غالب الأنبياء كانوا من ذرية اسحاق ، فهكذا كان غالب السادة الأئمة من ذرية الحسين ، وكما أن خاتم الأنبياء الذى طبق أمره مشارق الأرض ومغاربها كان من ذرية إسماعيل ، فكذلك الخليفة الراشد المهدى هو آخر الخلفاء يكون من ذرية الحسن .

وأيضاً فإن من كان ابن سنتين كان فى حكم الكتاب والسنة أن يحجر عليه فى بدنه ، ويحجر عليه فى ماله ، حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد ، فإنه يتيم ، وقد قال تعالى ﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ [٣] . فمن لم تفوض الشريعة إليه أمر نفسه كيف تفوض إليه أمر الأمة ؟ وكيف يجوز أن يكون إماماً على الأمة من لا يرى ولا يسمع له خبر مع أن الله لا يكلف العباد بطاعة من لا يقدرون على الوصول إليه ، وله أربعمائة وأربعون سنة ينتظر وهو لم يخرج ، إذ لا وجود له .

وكيف لم يظهر فخواصه وأصحابه المأمونين عليه كما ظهر آباؤه ، وما الموجب لهذا الاختفاء الشديد دون غيره من الآباء ، ومازال العقلاء قديماً وحديثاً يضحكون بمن يثبت هذا ويعلق دينه به ، حتى جعل

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده (١ / ٢٧٠)

(٢) الحديث : رواه أحمد فى مسنده (٥ / ٥١)

(٣) ٦ : النساء .

الزنادقة هذا وأمثاله طريقاً إلى القدح فى الملة ، وتسفيه عقول أهل الدين إذا كانوا يعتقدون مثل هذا .

لهذا لقد اطلع أهل المعرفة على خلق كثير منافقين زنادقة يتسترون بإظهار هذا وأمثاله ، ليستميلوا قلوب وعقول الضعفاء وأهل الأهواء ، ودخل بسبب ذلك من الفساد ما الله به عليم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، والله يصلح أمر هذه الأمة ويهديم ويرشدهم .

★ ★ ★

النـــذور :

وكذلك ما يتعلق بالنذور والمساجد والمشاهد ، فإن الله فى كتابه وسنة نبيه التى نقلها السابقون والتابعون من أهل بيته وغيرهم قد أمر بعمارة المساجد ، وإقامة الصلوات فيها بحسب الإمكان ، ونهى عن بناء المساجد على القبور ، ولعن من يفعل ذلك . قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1]

وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ﴾[2] .

وقال تعالى ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾[3] .

---

(١) ١٨ : التوبة .

(٢) ١١٤ : البقرة .

(٣) ٣٧ : النور .

وقال « وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا » [1] .

وقال وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا [2] .

وقال النبى ﷺ « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً فى الجنة » [3] .

وقال « بشر المشائين فى ظلم الليل إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة » [4] .

وقال : « من غدا إلى المسجد أوراح ، أعد الله نزلاً كلما غدا أو راح » [5] .

وقال « صلاة الرجل فى المسجد تفضل على صلاته فى بيته وسوقه بخمس وعشرين درجة » أ . هـ [6] .

وقال « من تطهر فى بيته فأحسن الطهور ، وخرج إلى المسجد لا ينهزه إلا الصلاة ، كانت خطوتاه إحداهما ترفع درجة ، والأخرى تحط خطيئة » [7] أ . هـ .

وقال « صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده ، وصلاته مع

---

(١) ١٨ : الجن .

(٢) ٤٠ : الحج .

(٣) الحديث أخرجه أحمد والشيخان والترمذى والنسائى عن عثمان وهو صحيح انظر ح . ص (٣٠٢) .

(٤) الحديث أخرجه أبو داود والحاكم عن بريدة وابن ماجه والحاكم عن أنس وهو صحيح مستدرك الحاكم (١/ ٢١٢) .

(٥) الحديث أخرجه أحمد والشيخان عن أبى هريرة قال السيوطى صحيح (٣١٠) الجامع الصغير .

(٦) الحديث أخرجه أحمد والشيخان وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة وهو صحيح (١٨٧) ج . ص .

(٧) الحديث: اخرجه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه . جامع الأحاديث (٢٠٨٤) .

الـرجلين أزكى من صلاتـه مع الرجل ، وما كان أكثر كان أحب إلى الله »[1] أ . هـ .

وقـال « سيكون عليكم أمراء يؤخرون الصلاة عند وقتها ، فصلوا الصلاة لوقتها ، ثم اجعلوا صلاتكم معهم نافلة »[2] أ . هـ .

وقال « يصلون لكم ، فإن أحسنوا فلكم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم »[3] أ . هـ .

وهذا باب واسع جداً .

وقال أيضاً « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[4] أ . هـ .

يحذر ما فعلوه . قالـوا ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً وهذا قاله فى مرضه .

وقيل قبل موته بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذون القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك »[5] .

ولما ذكر كنيسة الحبشة قال « أولئك إذا مات الرجل فيهم بنوا على قبره مسجداً ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » أ . هـ .

وكل هذه الأحاديث فى الصحاح المشاهير .

---

(١) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (٢ / ٤٧٥)

(٢) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (٥ / ٣١٤)

(٣) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (٢ / ٥٣٧)

(٤) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (١ / ٢١٨ ، ٥١٨)

(٥) الحديث : اخرجاه فى الصحيحين عن أم سلمة .

وقال أيضا « لعن الله زوارات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسرج » أ . هـ رواه الترمذى وغيره وقال : حديث حسن .

فإذا كان النبى ﷺ قد لعن الذين يتخذون على القبور ، المساجد ، ويسرجون عليها الضوء ، فكيف يستحل مسلم أن يجعل هذا طاعة وقربة ؟ !! .

وفى صحيح مسلم عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال « بعثنى رسول الله ﷺ فأمرنى ألا أدع قبر مشرفاً إلا سويته ولا تمثالاً إلا طمسته » أ . هـ .

وثبت عن النبى ﷺ أنه قال « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » أ . هـ .

فنهى النبى ﷺ عن الاجتماع عند قبره ، وأمر بالصلاة عليه فى جميع المواضع ، فإن الصلاة عليه تصل إليه من جميع المواضع ، وهذه الأحاديث رواها أهل بيته ، مثل على بن الحسين عن أبيه عن جده على ، ومثل عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فكانوا هم وجيرانهم من علماء أهل المدينة ينهون عن البدع التى عند قبره أو قبر غيره ، امتثالاً لأمره ، ومتابعة لشريعته ، فإن من مبدأ عبادة الأوثان : العكوف على الأنبياء والصالحين ، والعكوف على تماثيلهم ، وإن كانت وقعت بغير ذلك .

وقد ذكر الله فى كتابه عن المشركين أنهم قالوا ﴿ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا . وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا[1] ﴾ .

وقد روى طائفة من علماء السلف أن هؤلاء كانوا قوماً صالحين ، فلما ماتوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، وكذلك قال ابن عباس فى

---

(١) نوح : ٢٣

قوله ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّـٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ . وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾[١] .

قال ابن عباس : كان اللات رجلاً يلت السويق للحجاج ، فلما مات عكفوا على قبره ، ولهذا قال النبى ﷺ « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » . ونهى أن يصلى عند قبره .

ولهذا لما بنى المسلمون حجرته حرفوا مؤخرها وسنوه لئلا يصلى إليه أحد فإنه ﷺ قال « لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها » ا . هـ[٢] .

وكان ﷺ إذا خرج إلى أهل البقيع يسلم عليهم ويدعو لهم ، وعلم أصحابه أن يقولوا إذا زاروا القبور « سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية ، اللهم آجرهم ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » أ . هـ[٣] .

هذا مع أن فى البقيع إبراهيم وبناته أم كلثوم ورقية ، وسيدة نساء العالمين فاطمة ، وكانت إحداهن دفنت فيه قديماً قريباً من غزوة بدر ، ومع ذلك فلم يحدث على أولئك السادة شيئاً من هذه المنكرات بل المشروع التحية لهم ، والدعاء بالاستغفار وغيره .

وكذلك فى حقه أمر بالصلاة والسلام عليه من القرب والبعد ، وقال : « أكثروا علىَّ من الصلاة يوم الجمعة وليلة الجمعة ، فإن صلاتكم معروضة علىَّ . قالوا : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرِمْتَ : يعنى : بليت . قال : إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد

---

(١) النجم : ١٩ ، ٢٠

(٢) الحديث : اخرجه الامام أحمد فى مسنده (٤ / ١٣٥) .

(٣) الحديث : اخرجه الامام أحمد فى مسنده (٢ / ٣٠٠) (٦ ، ٧١)

الأنبياء »[1] أ . هـ .

وقال « ما من رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام » أ . هـ .

وكل هذه الأحاديث ثابتة عند أهل المعرفة بحديث النبى ﷺ فالدعاء والاستغفار يصل إلى الميت عند قبره ، وهو الذى ينبغى للمسلم أن يعامل به موتى المسلمين من الدعاء لهم بأنواع الدعاء كما أن فى حياته يدعو لهم .

وهذا رسول الله ﷺ أمرنا أن نصلى عليه ونسلم تسليماً فى حياته ومماته ، وعلى آل بيته ، وأمرنا أن ندعو للمؤمنين والمؤمنات فى محياهم ومماتهم عند قبورهم وغير قبورهم ونهانا الله أن نجعل له أنداداً ، أو نشبه بيت المخلوف الذى هو قبره ببيت الله الذى هو الكعبة البيت الحرام ، فإن الله أمرنا أن نحج ونصلى إليه ، ونطوف به ، وشرع لنا أن نستلم أركانه ، ونقبل الحجر الأسود الذى جعله الله بمنزلة يمينه .

قال ابن عباس « الحجر الأسود يمين الله فى الأرض ، فمن استلمه وصافحه فكأنما صافح الله وقبل يمينه » ا . هـ[2] .

وشرع كسوة الكعبة وتعليق الأستار عليها ، وكان يتعلق من يتعلق أستار الكعبة كالمتعلق بأذيال المستجبر به ، فلا يجوز أن تضاهى بيوت المخلوقين ببيت الخالق .

ولهذا كان السلف ينهون من زار قبر النبى ﷺ أن يقبله ، بل يسلم عليه بأبى هو وأمى ﷺ ، ويصلى عليه كما كان السلف يفعلون ، فإذا

---

(١) الحديث : اخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن مسعود (٢ / ٤٢١)

(٢) الحديث : اخرجه الديلمى فى الفردوس عن عكرمة موقوفاً ونحوه الخطيب وابن عساكر عن جابر وهو ضعيف . الجامع الصغير (١٣٩)

كان السلف أعرف بدين الله وسنة نبيه وحقوقه ، وحقوق السابقين والتابعين من أهل البيت وغيرهم ، ولم يفعلوا شيئاً من هذه البدع التى تشبه الشرك وعبادة الأوثان ، لأن الله ورسوله نهاهم عن ذلك ، بل يعبدون الله وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين كما أمر الله به ورسوله ، ويعمرون بيوت الله بقلوبهم وجوارحهم من الصلاة والقراءة ، والذكر والدعاء وغير ذلك .

فكيف يحل للمسلم أن يعدل عن كتاب الله وشريعة رسوله وسبيل السابقين من المؤمنين إلى ما أحدثه ناس آخرون إما عمداً وإما خطأ .

فخوطب حامل هذا الكتاب بأن جميع هذه البدع التى على قبور الأنبياء والسادة من آل البيت والمشايخ المخالفة للكتاب والسنة ، ليس للمسلم أن يعين عليها ، هذا إذا كانت القبور صحيحة ، فكيف وأكثر هذه القبور مطعون فيها ؟ .

وإذا كانت هذه النذور للقبور موصية فقد نهى الله عنها ورسوله والمؤمنون السابقون ، فقد قال النبى ﷺ « من نذر أن يطع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصيه » ا . هـ[1] .

وقال ﷺ « كفارة النذر كفارة يمين »[2] ا . هـ .

فإذا كان النذر طاعة لله ورسوله مثل أن ينذر صلاة أو صوماً أو حجاً أو صدقة أو نحو ذلك ، فهذا عليه أن يفى به ، وإذا كان المنذور معصية كفراً أو غير كفر ، مثل أن ينذر للأصنام التى بالهند ، ومثلما كان المشركون ينذرون لآلهتهم ، مثل اللات التى كانت بالطائف ، والعزى التى كانت بعرفة قريباً من مكة ومناة الثالثة الأخرى التى كانت لأهل المدينة . وهذه المدائن الثلاث هى مدائن أرض الحجاز ، وكانوا ينذرون

---

(١) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (٦ / ٣٦)

(٢) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (٤ / ١٤٤ ، ١٤٦)

لها النذور ، ويتعبدون لها ، وتوسلهم بها إلى الله فى حوائجهم كما أخبر الله عنهم بقوله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[1] .

ومثلما ينذر الجهال من المسلمين لعين ماء أو بئر من الآبار أو قناه ماء أو مغارة أو حجر أو شجرة من الأشجار ، أو قبر من القبور ، وإن كان قبر نبى أو رجل صالح أو ينذرون زيتاً أو شمعاً أو كسوة أو ذهباً أو فضة لبعض هذه الأشياء فإن هذا كله نذر معصية لا يوفى به .

لكن من العلماء من يقول : على صاحبه كفارة يمين . لما روى أهل السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا نذر فى معصية ، وكفارته كفارة يمين »[2] . وفى الصحيح عنه أنه قال : « كفارة النذر كفارة يمين »[3] .

وإذا صرف من ذلك المنذور شىء فى قربة من القربات المشروعة كان حسناً مثل أن يصرف الدهن إلى تنوير بيوت الله ، ويصرف المال والكسوة إلى من يستحقه من المسلمين من آل بيت رسول الله ﷺ ، وسائر المؤمنين ، وفى سائر المصالح التى أمر الله بها ورسوله .

وإذا اعتقد بعض الجهال أن بعض هذه النذور المحرمة قد قضت حاجته بجلب المنفعة من المال والعافية ونحو ذلك أو بدفع المضرة من العدو ونحوه ، فقد غلط فى ذلك ، فقد صح عن النبى ﷺ أنه نهى عن النذر وقال « إنه لا يأتى بخير ، ولكنه يستخرج به من البخيل » أ . هـ[4] . فعقد النذر مكروه وإن كان الوفاء به واجباً إذا كان المنذور طاعة لله ورسوله ﷺ .

---

(١) ٢ : الزمر .

(٢) الحديث رواه الامام احمد فى مسنده (٦ / ٢٤٧)

(٣) الحديث : تقدم

(٤) الحديث : رواه الامام أحمد فى مسنده (٢ / ٨٦)

وقد أخبر النبى ﷺ أن النذر لا يأتى بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل ، وهذا المعنى قد ثبت عن النبى ﷺ من غير وجه ، فيما كان قربة محضة لله ، فكيف بنذر فيه شرك فإنه لا يجوز نذره ولا الوفاء به .

وهذا وإن كان قد عمر الإسلام وكثر العكوف على القبور التى هى للصالحين من أهل البيت وغيرهم ، فعلى الناس أن يطيعوا الله ورسوله ، ويتبعوا دين الله الذى بعث به نبيه ﷺ ولا يشرعوا من الدين مالم يأذن به الله ، فإن الله إنما أرسل الرسل ، وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله ، وليعبدوا الله وحده لا شريك له .

كما قال تعالى ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [1] .

وقال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [2]

وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [3] .

وقال تعالى فى حق الذين كانوا يدعون الملائكة والنبيين ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [3] .

---

(١) ٤٥ : الزخرف .
(٢) ١٣ : الشورى .
(٣) ٣٦ : النحل .
(٤) ٥٦ : الإسراء .

وقال ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [1] .

ورد على من اتخذ شفعاء من دونه فقال ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [2]

وقال ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ [3] .

وقال تعالى ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [4] .

وقال ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [5]

وقال تعالى ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [6] .

وقال ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ [7] .

---

(١) ٨٠ : آل عمران .
(٢) ٤٦ : الزمر .
(٣) ٣١ : التوبة .
(٤) ٢٥٥ : البقرة .
(٥) ٢٦ : النجم .
(٦) ٢٨ : الأنبياء .
(٧) ٢٢ : سبأ .

وكتب الله من أولها إلى آخرها تأمر بإخلاص الدين لله ، لاسيما الكتاب الذى بعث به محمد ﷺ أو الشريعة التى جاء بها ، فإنها كملت الدين ، قال تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾[1] .

وقال ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

وقد جعل قوام الأمر بالإخلاص لله ، والعدل فى الأمور كلها ، كما قال تعالى ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[3] أ . هـ .

ولقد خلص النبى ﷺ التوحيد من دقيق الشرك وجليله حتى قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذى وصححه .

وقال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وهذا مشهور فى الصحاح .

وقال : « لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ماشاء الله ثم شاء محمد » أ . هـ .

وقال له رجل : ماشاء الله وشئت ، فقال : أجعلتنى لله نداً ؟ بل ماشاء الله وحده » . وروى عنه أنه قال « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل » . وروى عنه أن الرياء شرك .

---

(١) ٣ : المائدة .

(٢) ١٨ : الجاثية

(٣) ٢٩ : الأعراف

وقال تعالى ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ (١) .

وعلم بعض أصحابه أن يقول « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم واستغفرك لما لا أعلم » أ . هـ .

ومن هذا الباب الذين يسألون الصدقة أو يعطونها لغير الله ، مثل من يقول : لأجل فلان ، إما بعض الصحابة ، أو بعض أهل البيت ، حتى يتخذ السؤال بذلك ذريعة إلى أكل أموال الناس بالباطل ، ويصير قوم ممن ينتسب إلى محبة آل البيت يعطى الناس ، وآخرون ممن ينتسب إلى السنة يعطى الآخرين ، والشيطان قد استحوذ على الجميع ، فإن الصدقة وسائر العبادات لا يشرع أن تفعل إلا لله ، كما قال تعالى :

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى . ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ . وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ . إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ . وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ (٣) وقال ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ (٤) .

وقال ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (٥) .

---

(١) ١١٠ : الكهف .
(٢) ١٧ ـ ٢١ : الليل .
(٣) ٣٩ : الروم
(٤) ٢٦٥ : البقرة .
(٥) ٩ : الإنسان .

وقال تعالى كلمة جامعة ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾[1] .

وعبـادته تجمع الصلاة وما يدخل فيها من الدعاء والذكر ، وتجمع الصدقة والزكاة بجميع الأنواع من الطعام واللباس والنقد وغير ذلك .

والله يجعلنـا وسـائـر إخـوانـنـا المؤمـنـين مخلصين له الدين ، نعبده ولا نشرك به شيئاً ، معتصمين بحبله ، متمسكين بكتابه ، متعلمين لما أنزل من الكتاب والحكمة ويصرف عنا شياطين الجن والإنس ، ويعيذنا أن تفرق بنا عن سبيله ، ويهدينا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

---

(١) ٥ : البينة .

ثـــانيـــاً

رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص

رسالة ابن تيمية إلى ملك قبرص

من أحمد بن تيمية إلى سرجوان عظيم أهل ملتة ، ومن تحوط به عنايته من رؤساء الدين ، وعظماء العيش والرهبان والأمراء والكتاب واتباعهم سلام على من اتبع الهدى

أما بعد / فأنا نحمد اليكم الله الذى لا إله إلا هو إله إبراهيم وآل عمران ، ونسأله أن يصلى على عباده المصطفين وانبيائه المرسلين ويخص بعملائه وسلامه أولى العزم الذين هم سادة الخلق وقادة الأمم الذين خصوا بأخذ الميثاق ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى وعيسى ، ومحمد ، كما سماهم الله تعالى فى كتابه فقال عز وجل « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى : أن أقيموا الدين ، ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ . (1)

ونسأله أن يخص بشرائف صلاته وسلامه خاتم المرسلين ، وخطيبهم إذا وفدوا على ربهم ، وامامهم إذا اجتمعوا ، شفيع الخلائق يوم القيامة ، نبى الرحمة ، ونبى الملحمة ، الجامع محاسن الأنبياء ، الذي بشر به عبد الله وروحه وكلمته التى ألقاها إلى الصديقة الطاهرة البتول ، التى لم يمسها بشر قط « مريم ابنة عمران » ذلك مسيح الهدى عيسى بن مريم ، الوجيه فى الدنيا والآخرة ، المقرب عند الله ، المنعوت

(1) ٧ : الأحزاب .

بعوت الجمال والرحمة لما انجر بنو إسرائيل فيما بعث به موسى من نعت الجلال والشدة . وبعث الخاتم الجامع بنعت الكمال ؛ المشتمل على الشدة على الكفار ، والرحمة بالمؤمنين . والمحتوى على محاسن الشرائع والمناهج التى كانت قبله ، صلى الله عليهم وسلم أجمعين . وعلى من تبعهم إلى يوم القيامة .

أما بعد : فإن الله خلق الخلائق بقدرته ، وأظهر فيهم آثار مشيئته وحكمته ورحمته ، وجعل المقصود الذي خلقوا له فيما أمرهم به هو عبادته . وأصل ذلك هو معرفته ومحبته . فمن هداه الله صراطه المستقيم آتاه رحمة ، وعلما ومعرفة باسمائه الحسنى وصفاته العليا ، ورزقه الانابة إليه ، والوجل لذكره ، والخشوع له ، والتأله له : فحن إليه حنين النسور إلى اوكارها . وكلف بحبه كلف الصبى بامه ، لا يعبد إلا إياه رغبة ، ورهبة ، ومحبة ، وأخلص دينه لمن الدنيا والآخرة له ، رب الأولين والآخرين . مالك يوم الدين . خالق ما تبصرون وما لا تبصرون ، عالم الغيب والشهادة ، الذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون . لم يتخذ من دونه أنداداً ، كالذين اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولم يشرك بربه أحدا ، ولم يتخذ من دونه وليا ، ولا شفيعا ؛ لا ملكا ، ولا نبيا ، ولا صديقا ؛ فإن كل من في السموات والارض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا . فهنالك اجتباه مولاه واصطفاه وآتاه رشده . وهداه لما اختلف فيه من الحق بإذنه ؛ إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وذلك أن الناس كانوا بعد آدم عليه السلام وقبل نوح عليه السلام على التوحيد والاخلاص ، كما كان عليه أبوهم آدم أبو البشر - عليه السلام - حتى ابتدعوا الشرك وعبادة الأوثان - بدعة من تلقاء انفسهم - لم ينزل الله بها كتابا ، ولا أرسل بها رسولا ؛ بشبهات زينها الشيطان من جهة المقاييس الفاسدة . والفلسفة الحائدة . قوم منهم زعموا أن التماثيل

طلاسم الكواكب السماوية ، والدرجات الفلكية ، والأرواح العلوية . وقوم اتخذوها على صورة من كان فيهم من الأنبياء والصالحين . وقوم جعلوها لأجل الأرواح السفلية من الجن والشياطين ، وقوم على مذاهب أخر .

واكثرهم لرؤسائهم مقلدون ، وعن سبيل الهدى ناكبون . فابتعث الله نبيه نوحا عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ؛ وان زعموا أنهم يعبدونهم ليتقربوا بهم إلى الله زلفى ، ويتخذوهم شفعاء . فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فلما أعلمه الله انه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن دعا عليهم ، فاغرق الله تعالى أهل الأرض بدعوته ، وجاءت الرسل بعده تترى . إلى أن عم الأرض دين الصابئة والمشركين ؛ لما كانت النمارذة والفراعنة ملوك الأرض شرقا وغربا .

فبعث الله تعالى إمام الحنفاء ، وأساس الملة الخالصة ، والكلمة الباقية : إبراهيم خليل الرحمن . فدعا الخلق من الشرك إلى الاخلاص . ونهاهم عن عبادة الكواكب والأصنام ، وقال :﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١)

وقال لقومه ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٢) ﴾ وقال إبراهيم عليه السلام ومن معه لقومهم :

﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ (٣) ﴾ .

---

(١) ٧٩ : الأنعام .

(٢) ٧٥ ـ ٨٢ الشعراء .

(٣) ٤ : الممتحنة .

فجعـل الله الأنبياء والمـرسلين من أهـل بيتـه ، وجعل لكل منهم خصائص ، ورفع بعضهم فوق بعض درجات . وآتى كلا منهم من الآيات ما آمن صلى مثله البشر . فجعـل لموسى العصـا حية ، حتى ابتلعت ما صنعت السحرة الفلاسفة من الحبال والعصى ، وكانت شيئاً كثيراً ، وفلق له البحر حتى صار يابسا ، والماء واقفا حاجزاً بين اثنى عشر طريقا ، على عدد الاسباط ، وأرسل معه القمل ، والضفادع ، والـدم ، وظلل عليه وعـلى قومـه الغمام الأبيض يسير معهم ، وأنزل عليهم صبيحــة كل يوم المن والسلوى ، وإذا عطشـوا ضرب موسى بعصاه الحجر ، فانفتحت منه اثنتا عشرة عيناً ، قد علم كل أناس مشربهم .

وبعث بعـد أنبياء من بنى إسرائيل : منهم من أحي الله على يده الموتى . ومنهم من شفى الله على يده المرضى . ومنهم من أطلعه على ما شاء من غيبة . ومنهم من سخر له المخلوقات . ومنهم من بعثه بأنواع المعجزات .

وهذا مما اتفق عليه جميع أهل الملل ، وفى الكتب التى بأيدى اليهود والنصارى ، والنبوات التى عندهم ، وأخبار الأنبياء عليهم السلام : مثــل شعـياء ، وأرمياء ، ودانيال ، وحبقــوق ، وداود ، وسليمان ، وغيرهم ، وكتاب « سفر الملوك » وغيره من الكتب : ما فيه معتبر .

وكـانت بنـو إسرائيل أمة قاسية ، عاصية : تارة يعبدون الأصنام والأوثان . وتارة يعبدون الله . وتارة يقتلون النبيين بغير الحق . وتارة يستحلون محارم الله بأدنى الحيل . فلعنوا أولاً على لسان داود ؛ وكان من خراب بيت المقدس ما هو معروف عند أهل الملل كلهم .

ثم بعث الله المسيح بن مريم رسـولا قد خلت من قبله الرسل ، وجعله وأمـه آية للنـاس ؛ حيث خلقـه من غير أب ؛ إظهاراً لكمال قدرته ، وشمول كلمته ، حيث قسم النوع الانسانى الاقسام الأربعة . فجعل آدم من غير ذكر ولا أنثى . وخلق زوجه حواء من ذكر بلا أنثى .

وخلق المسيح بن مريم من أنثى بلا ذكر . وخلق سائرهم من الزوجين الـذكـر والانثى . وآتى عبده المسيح من الآيات البينات ما جرت به سنته : فأحى الموتى ، وأبرأ الأكمة والأبرص ، وأنبأ الناس بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، ودعا إلى الله وإلى عبادته ، متبعا سنة اخوانه المرسلين ، مصدقا لمن قبله ، ومبشراً بمن يأتى بعده .

وكان بنو إسرائيل قد عتوا وتمردوا ، وكان غالب أمرء اللين والرحمة ، والعفـو والصفح ، وجعل فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ، وجعل منهم قسيسين ورهباناً . فتفرق الناس في المسيح عليه السلام ومن اتبعه من الحواريين ثلاثة أحزاب :

قوم كذبـوه وكفـروا به ، وزعموا انه ابن بغي ، ورموا أمه بالفرية ونسبـوه إلى يوسف النجـار ، وزعمـوا ان شريعة التوراة لم ينسخ منها شيء ، وان الله لم ينسخ ما شرعه ، بعد ما فعلوه بالأنبياء ، وما كان عليهم من الآصار في النجاسات والمطاعم .

وقوم غلوا فيه ، وزعموا انه الله ، او ابن الله . وأن اللاهوت تدرع الناسوت ، وأن رب العالمين نزل ، وأنزل ابنه إسماعيل ويقتل : فداء الخطيئة آدم عليه السلام ، وجعلوا الاله الأحد ، الصمد ، الذي لم يلد ولم يولـد ، ولم يكن له كفواً أحد . قد ولد ، واتخذ ولدا ؛ وأنه إله ، حي ، عليم ، قدير ، جوهر واحد ، ثلاثة أقانيم ، وأن الواحد منها أقنـوم الكلمـة ، وهى العلم ، هى تدرعت الناسوت البشري ، مع العلم بأن أحدهما لا يمكن انفصاله عن الآخرين ؛ إلا إذا جعلوه ثلاثة إلهات متباينة . وذلك ما لا يقولونه .

وتفرقوا في التثليث والاتحاد تفرقا ، وتشتتوا تشتتا ؛ لا يقر به عاقل . ولم يجيء نقل إلا كلمات متشابهات في الانجيل وما قبله من الكتب ، قد بينتهـا كلمات محكـمات في الإنجيل وما قبله ، كلها تنطق بعبودية المسيح ، وعبادته لله وحده ، ودعائه ، وتضرعه .

ولما كان اصل الدين هو الإيمان بالله ورسوله ، كما قال خاتم النبيين والمرسلين : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » وقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » كان أمر الدين توحيد الله والاقرار برسله ؛ ولهذا كان الصابئون والمشركون كالبراهمة ونحوهم من منكرى النبوات مشركين بالله في إقرارهم وعبادتهم ، وفاسدى الاعتقاد فى رسله .

فأرباب التثليث فى الوحدانية والاتحاد فى الرسالة قد دخل فى أصل دينهم من الفساد ما هو بين بفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وبكتب الله التى أنزلها .

ولهذا كان عامة رؤسائهم - من القسيسين ، والرهبان ، وما يدخل فيهم من البطارقة ، والمطارنة ، والاساقفة - إذا صار الرجل منهم فاضلا مميزاً فإنه ينحل عن دينه ، ويصير منافقاً للملوك أهل دينه ، وعامتهم رضى بالرياسة عليهم ، وبما يناله من الحظوظ ؛ كالذي كان لبيت المقدس الذى يقال له « ابن البورى » والذي كان بدمشق الذي يقال له « ابن القف » والذي بقسطنطينية وهو « البابا » عندهم ، وخلق كثير من كبار الباباوات ، والمطارنة ، والاساقفة ، لما خاطبهم قوم من الفضلاء أقروا لهم بأنهم ليسوا على عقيدة النصارى ؛ وإنما بقاؤهم على ما هم عليه لأجل العادة والرياسة ، كبقاء الملوك والأغنياء على ملكهم وغناهم ، ولهذا تجد غالب فضلائهم إنما همة أحدهم نوع من العلم الرياضي ؛ كالمنطق ، والهيئة ، والحساب ، والنجوم ؛ او الطبيعي ، كالطب ، ومعرفة الأركان ، او التكلم فى الالهي على طريقة الصابئة الفلاسفة ، الذين بعث إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام : قد نبذوا دين المسيح والرسل الذين قبله وبعده وراء ظهورهم ، وحفظوا رسوم الدين ، لأجل الملوك والعامة .

وأما الرهبان فأحدثوا من أنواع المكر والحيل بالعامة ما يظهر لكل عاقل ؛ حتى صنف الفضلاء فى حيل الرهبان كتبا : مثل النار التى كانت تصنع بقمامة ، يدهنون خيطاً دقيقا بسندروس ، ويلقون النار عليه بسرعة ، فتنزل . فيعتقد الجهال انها نزلت من السماء ، ويأخذونها إلى البحر ، وهي صنعة ذلك الراهب ، يراه الناس عيانا ، وقد اعترف هو غيره أنهم يصنعونها .

وقد اتفق اهل الحق من جميع الطوائف على أنه لا تجوز عبادة الله تعالى بشيء ليس له حقيقة . وقد يظن المنافقون ان ما ينقل عن المسيح وغيره من المعجزات من جنس النار المصنوعة . وكذلك حيلهم فى تعليق الصليب ، وفى بكاء التماثيل التى يصورونها على صورة المسيح وأمه وغيرهما ونحو ذلك : كل ذلك يعلم كل عاقل انه افك مفترى ، وأن جميع انبياء الله وصالحي عباده برآء من كل زور وباطل وإفك ، كبرائتهم من سحر سحرة فرعون .

ثم ان هؤلاء عمدوا إلى الشريعة التى يعبدون الله بها فناقضوا الأولين من اليهود فيها ؛ مع أنهم يأمرون بالتمسك بالتوراة ؛ إلا ما نسخه المسيح . قصر هؤلاء فى الأنبياء حتى قتلوهم . وغلا هؤلاء فيهم حتى عبدوهم ، وعبدوا تماثيلهم . وقال أولئك : ان الله لا يصلح له ان يغير ما أمر به فينسخه ؛ لا فى وقت آخر ، ولا على لسان نبى آخر . وقال هؤلاء : بل الأحبار والقسيسون يغيرون ما شاءوا ، ويحرمون ما رأوا ، ومن أذنب ذنباً وضعوا عليه ما رأوا من العبادات ، وغفروا له . ومنهم من يزعم انه ينفخ فى المرأة من روح القدس ، فيجعل البخور قرباناً .
وقال أولئك : حرم علينا أشياء كثيرة . وقال هؤلاء : ما بين البقة والفيل حلال : كل ما شئت ، وتقع ما شئت . وقال أولئك : النجاسات مغلظة ؛ حتى ان الحائض لا يقعد معها ولا يؤكل معها . وهؤلاء يقولون : ما عليك شيء نجس ، ولا يأمرون بختان ، ولا غسل من جنابة ، ولا إزالة نجاسة ؛ مع ان المسيح والحواريين كانوا على شريعة

التوراة .

ثم ان الصلاة إلى المشرق لم يأمر بها المسيح ولا الحواريون ؛ وإنما ابتدعها قسطنطين أو غيره .

وكذلك الصليب إنما ابتدعه قسطنطين برأيه ، وبمنام زعم انه رآه . واما المسيح والحواريون فلم يأمروا بشيء من ذلك .

والدين الذي يتقرب العباد به إلى الله لابد ان يكون الله أمر به وشرعه على ألسنة رسله وأنبيائه ؛ وإلا فالبدع كلها ضلالة . وما عبدت الأوثان الا بالبدع .

وكذلك إدخال الألحان فى الصلوات لم يأمر بها المسيح ، ولا الحواريون .

وبالجملة فعامة انواع العبادات والأعياد التى هم عليها لم ينزل بها الله كتاباً ، ولا بعث بها رسولا ؛ لكن فيهم رأفة ورحمة . وهذا من دين الله ؛ بخلاف الأولين ؛ فإن فيهم قسوة ومقتا ، وهذا مما رحمه الله تعالى ، لكن الأولون لهم تمميز وعقل مع العناد والكبر . والآخرون فيهم ضلال عن الحق وجهل بطريق الله .

ثم ان هاتين الأمتين تفرقتا احزابا كثيرة فى أصل دينهم ، واعتقادهم فى معبودهم ورسولهم . هذا يقول : ان جوهر اللاهوت والناسوت صارا جوهراً واحداً ، وطبيعة واحدة ، وأقنوماً واحداً . وهم اليعقوبية ، وهذا يقول : بل هما جوهران ، وطبيعتان ، وأقنومان . وهم النسطورية . وهذا يقول بالاتحاد من وجه دون وجه وهم الملكانية .

وقد آمن جماعات من علماء أهل الكتاب قديماً وحديثاً وهاجروا إلى الله ورسوله ، وصنفوا في كتب الله من دلالات نبوة النبى خاتم المرسلين ، وما في التوراة والزبور والانجيل من مواضع لم يدبروها ، وكذلك الحواريون . فلما اختلف الأحزاب من بينهم هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فبعث النبى الذي بشر به المسيح

ومن قبله من الأنبياء ، داعياً إلى ملة إبراهيم ، ودين المرسلين قبله وبعده ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، ولخلاص الدين كله لله ، وطهر الأرض من عبادة الأوثان ، ونزه الدين عن الشرك : دقه ، وجله ، بعد ما كانت الأصنام تعبد فى أرض الشام وغيرها في دولة بنى إسرائيل ، ودولة الذين قالوا : انا نصارى . وأمر بالايمان بجميع كتب الله المنزلة ، كالتوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان . وبجميع أنبياء الله من آدم إلى محمد .

قال الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [1]

وأمر الله ذلك الرسول بدعوة الخلق إلى توحيده بالعدل ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ وقال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [3]

وأمره أن تكون صلاته وحجه إلى بيت الله الحرام ، الذي بناه خليله

---

(١) ١٣٥ : البقرة

(٢) ٦٤ : آل عمران

(٣) ٧٩ ، ٨٠ : آل عمران .

إبراهيم أبو الأنبياء وامام الحنفاء ، وجعل أمته وسطا فلم يغلوا فى الأنبياء كغلو من عدلهم بالله ، وجعل .فيهم شيئاً من الالهية ، وعبدهم ، وجعلهم شفعاء . ولم يجفوا جفاء من آذاهم ، واستخف بحرماتهم ، وأعرض عن طاعتهم ؛ بل عزروا الأنبياء - أي عظموهم ونصروهم - وآمنوا بما جاءوا به ، وأطاعوهم ، واتبعوهم ، وائتموا بهم ، وأحبوهم ، وأجلوهم ، ولم يعبدوا إلا الله ، فلم يتكلوا إلا عليه ، ولم يستعينوا إلا به ، مخلصين له الدين ، حنفاء .

وكذلك فى الشرائع . قالوا ما أمرنا الله به اطعناه ، وما نهانا عنه انتهينا ، وإذا نهانا عما كان أجله - كما نهى بنى إسرائيل عما كان أباحه ليعقوب - أو أباح لنا ما كان حراما - كما أباح المسيح بعض الذي حرم الله على بنى إسرائيل - سمعنا وأطعنا .

وأما غير سل الله وأنبيائه فليس لهم ان يبدلوا دين الله ، ولا يبتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله . والرسل إنما قالوا تبليغاً عن الله ؛ فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، فكما لا يخلق غيره ، لا يأمر غيره ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] .

وتوسطت هذه الأمة فى الطهارة والنجاسة ، وفي الحلال والحرام ، وفى الأخلاق . ولم يجردوا الشدة كما فعله الأولون ، ولم يجردوا الرأفة كما فعله الآخرون ، بل عاملوا أعداء الله بالشدة ، وعاملوا أولياء الله بالرأفة والرحمة ، وقالوا فى المسيح ما قاله سبحانه وتعالى ، وما قاله المسيح والحواريون ؛ لا ما ابتدعه الغالون والجافون .

وقد أخبر الحواريون عن خاتم المرسلين انه يبعث من أرض اليمن ، وانه يبعث بقضيب الأدب ، وهو السيف . وأخبر المسيح أنه يجيء بالبينات والتأويل . وان المسيح جاء بالأمثال . وهذا باب يطول شرحه .

---

(١) ٤٠ : يوسف .

وإنما نبه الداعي لعظيم ملته وأهله ، لما بلغنى ما عنده من الديانة والفضـل ، ومحبـة العلم وطلب المذاكرة ، ورأيت الشيخ أبا العباس المقدسي شاكراً من الملك : من رفقه ، ولطفه ، وإقباله عليه ، وشاكرا من القسيسين ونحوهم .

ونحن قوم نحب الخير لكل احد ، ونحب ان يجمع الله لكم خير الدنيا والآخرة ؛ فإن أعظم ما عبد الله به نصيحة خلقه ، وبذلك بعث الله الأنبياء والمرسلين ، ولا نصيحة اعظم من النصيحة فيما بين العبد وبين ربه ؛ فإنه لابد للعبد من لقاء الله ، ولابد إن الله يحاسب عبده ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1] .

وأمـا الـدنيا فأمـرها حقير ، وكبيرها صغير . وغاية أمرها يعود إلى الرياسة والمال . وغاية ذي الرياسة ان يكون كفرعون الذي أغرقه الله في اليم انتقاما منه . وغاية ذي المال ان يكون كقارون الذي خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . لما آذى نبي الله موسى .

وهـذه وصايا المسيح ومن قبله ومن بعده من المرسلين ، كلها تأمر بعبادة الله ، والتجرد للدار الآخرة ، والاعراض عن زهرة الحياة الدنيا .

ولـما كان أمـر الدنيا خسيسا رأيت ان أعظم ما يهدى لعظيم قومه المفـاتحة في العلم والدين : بالمذاكرة فيما يقرب إلى الله . والكلام فى الفروع مبنى على الأصول . وانتم تعلمون ان دين الله لا يكون بهوى النفس ، ولا بعادات الآباء واهل المدينة ، وإنما ينظر العاقل فيما جاءت به الرسل ، وفى ما انفق الناس عليه ، وما اختلفوا فيه ، ويعامل الله تعالى بينه وبين الله تعالى بالاعتقاد الصحيح ، والعمل الصالح ، وان كان لا يمكن الانسان ان يظهر كل ما فى نفسه لكل احد : فينتفع هو بذلك القدر .

---

(١) ٦ : الأعراف .

وإن رأيت من الـعـلـم ولـسـيير كانتـه ، وجـاوبتـه عن مسـائـل يسـألها ، وقـد كان خطر لي أن أجيء إلى قبرص لمصـالح فى الدين والدنيا ، لكن إذا رأيت من الملك ما فيه رضى الله ورسوله عاملته بما يقتضيه عمله ؛ فإن الملك وقومه يعلمون ان الله قد اظهر من معجزات رسله عامة ، ومحمد خاصة : ما أيد به دينه ، وأذل الكفار والمافقين .

ولما قدم مقدم المغول غازان واتباعه إلى دمشق ، وكان قد انتسب إلى الاسلام ؛ لكن لم يرض الله ورسوله والمؤمنون بما فعلوه ؛ حيث لم يلتزموا دين الله ، وقد اجتمعت به وبأمرائه ، وجرى لي معهم فصول يطول شرحها ، لابد ان تكون قد بلغت الملك ؛ فأذله الله وجنوده لنا ، حتى بقينا نضربهم بأيدينا ، ونصرخ فيهم بأصواتنا . وكان معهم صاحب سيس مثل اصغر غلام يكون ، حتى كان بعض المؤذنين الذين معنا يصرخ عليه ، ويشتمه ، وهو لا يجترىء ان يجاوبه ، حتى ان وزراء غازان ذكروا ما يتم عليه من فساد النية له ، وكنت حاضراً لما جاءت رسلكم إلى ناحية الساحل ، واخبرني التتار بالأمر الذي أراد صاحب سيس ان يدخل بينكم وبينه فيه ، حيث مناكم بالغرور ، وكان التتار من اعظم الناس شتيمة لصاحب سيس ، وإهانة له ؛ ومع هذا فانا كنا نعامل اهل ملتكم بالاحسان إليهم ، والذب عنهم .

وقد عرف النصارى كلهم أنى لما خاطبت التتار في اطلاق الاسرى ، وأطلقهم غازان ، وقطلو شاه ، وخاطبت مولاي فيهم فسمح باطلاق المسلمين . قال لي : لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس ، فهؤلاء لا يطلقـون . فقلت له : بل جميع من معك من اليهود والنصارى ، الـذين هم أهـل ذمتنا ؛ فانا نفتكهم ، ولا ندع أسيراً ، لا من اهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، واطلقنا من النصاريى من شاء الله . فهذا عملنا واحساننا ، والجزاء على الله .

وكذلك السبى الذى بأيدينا من النصارى يعلم كل احد احساننا ورحمتنـا ورأفتنـا بهم ؛ كما أوصـانـا خاتم المرسلين حيث قال فى آخر

حياتـه : « الصـلاة ، ومـا ملكت ايمانكم » قال الله تعـالى في كتـابه ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾[1]

ومـع خضـوع التتـار لهذه الملة ، وانتسـابهم إلى هذه الملة ؛ فلم نخادعهم ، ولم ننافقهم ، بل بينا لهم ما هم عليه من الفساد والخروج عن الاسـلام المـوجب لجهـادهم ، وان جنود الله المؤيدة ، وعساكره المنتصورة المستقرة بالديار الشامية والمصرية : ما زالت منصورة على من ناولها ، مظفرة على من عاداها . وفي هذه المدة لما شاع عند العامة ان التتار مسلمون ، امسك العسكر عن قتالهم ، فقتل منهم بضعة عشر الفـا ، ولم يقتل من المسلمين مائتان . فلما انصر العسكر إلى مصر ، وبلغـه ما عليه هذه الـطائفـة الملعـونة من الفساد ، وعدم :

خرجت جنود الله وللأرض منها وئيد ، قد ملات السهل والجبل ؛ فى كثرة ، وقوة ، وعدة ، وإيمان ، وصدق ، قد بهرت العقول والألباب . محفـوفـة بمـلائكـة الله التى ما زال يمد بها الأمة الحنيفية ، المخلصة لبارئها : فانهزم العدو بين ايديها ، ولم يقف لمقابلتها . ثم أقبل العدو ثانيا ، فأرسل عليه من العذاب ما أهلك النفوس والخيل ، وانصرف خاسئاً وهو حسير ، وصدق الله وعده ، ونصر عبده . وهو الآن فى البلاء الشديد والتعكيس العظيم ، والبلاء الذي أحاط به ، والاسلام فى عز متزايد ، وخير مترافد ، فإن النبى ﷺ قد قال : « ان الله يبعث لهذه الأمة فى رأس كل مائة سنة من يجدد لها امر دينها » [2] وهذا الدين فى اقبال وتجديد . وأنا ناصح للملك وأصحابه ـ والله الذي لا إله إلا هو الذي انزل التوراة والانجيل والفرقان .

ويعلم الملك ان وفد نجران ـ وكانوا نصارى كلهم ، فيهم الأسقف وغـيره ـ لما قدمـوا على النبى ﷺ ، ودعـاهم إلى الله ورسـوله ، وإلى الاسلام : خاطبوه فى أمر المسيح ، وناظروه ، فلما قامت عليهم الحجة

---

(١) ٨ : الانسان

(٢) الحديث : اخرجه ابو داود والحاكم والبيهقى فى المعرفة عن أبى هريرة قال السيوطى فى الجامع الصغير (صحيح) (٦٧) .

جعلوا يراوغون ، فأمر الله نبيه ان يدعوهم إلى المباهلة ، كما قال : ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ[1] ﴾ فلما ذكر النبى ﷺ ذلك استشوروا بينهم ، فقالوا : تعلمون به نبى وأنه ما من أحد نبيا فافلح . فادوا إليه الجزية ، ودخلوا فى الذمة ، واستعفوا من المباهلة .

وكذلك بعث النبى ﷺ كتابه إلى قيصر الذي كان ملك النصارى بالشام والبحر إلى قسطنطينية وغيرها ، وكان ملكا فاضلا . فلما قرأ كتابه ، وسأل عن علاقته : عرف انه النبى الذي بشر به المسيح ، وهو الذي كان وعد الله به إبراهيم فى ابنه إسماعيل ، وجعل يدعو قومه النصارى إلى متابعته ، وإكرام كتابه ، وقبله ، ووضعه على عينيه ، وقال : وددت انى اخلص اليه حتى اغسل عن قدميه ، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه .

وأما النجاشي ملك الحبشة النصرانى ؛ فإنه لما بلغه خبر النبي ﷺ من اصحابه الذين هاجروا إليه : آمن به وصدقه ، وبعث إليه ابنه ، وأصحابه مهاجرين . وصلى النبى ﷺ عليه لما مات . ولما سمع سورة « كهيعص » بكى . ولما أخبروه عما يقولون فى المسيح قال : والله ما يزيد عيسى على هذا مثل هذا العود . وقال : ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة .

وكانت سيرة النبى ﷺ أن من آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله من النصارى صار من أمته ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم . وكان له أجران : أجر على إيمانه بالمسيح ، وأجر على إيمانه بمحمد . ومن لم يؤمن به من الأمم فإن الله أمر بقتاله ، كما قال فى كتابه : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا

---

(١) ٦١ : آل عمران .

﴿يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ .(1)

فمن كان لا يؤمن بالله ، بل يسب الله ، ويقول : انه ثالث ثلاثة ، وانه صلب . ولا يؤمن برسله ؛ بل يزعم ان الذي حمل وولد ، وكان يأكل ويشرب ، ويتغوط ، وينام : هو الله ، وابن الله . وان الله او ابنه حل فيه ، وتدرعه ، ويجحد ما جاء به محمد خاتم المرسلين ، ويحرف نصوص التوراة والانجيل ؛ فإن في الأناجيل الأربعة من التناقض والاختلاف بين ما أمر الله به وأوجبه ما فيها ، ولا بدين الحق . ودين الحق هو الإقرار بما امر الله به وأوجبه ، من عبادته ، وطاعته ، ولا يحرم ما حرم الله ورسوله ؛ من الدم والميتة ولحم الخنزير ، الذي ما زال حراما من لدن آدم إلى محمد ﷺ ، ما أباحه نبي قط ، بل علماء النصارى يعلمون انه محرم ، وما يمنع بعضهم من إظهار ذلك إلا الرغبة والرهبة ، وبعضهم يمنعه العناد والعادة ونحو ذلك . ولا يؤمنون باليوم الآخر ؛ لأن عامتهم وان كانوا يقرون بقيامة الأبدان ؛ لكنهم لا يقرون بما أخبر الله به من الأكل والشرب واللباس والنكاح والنعيم والعذاب فى الجنة والنار ؛ بل غاية ما يقرون به من النعيم السماع والشم . ومنهم متفلسفة ينكرون معاد الأجساد ، وأكثر علمائهم زنادقة ، وهم يضمرون ذلك ، ويسخرون بعوامهم ؛ لا سيما بالنساء والمترهبين منهم : بضعف العقول . فمن هذا حاله فقد امر الله ورسوله بجهاده حتى يدخل فى دين الله ، او يؤدي الجزية ، وهذا دين محمد ﷺ .

ثم المسيح صلوات الله عليه لم يأمر بجهاد ؛ لا سيما بجهاد الأمة الحنيفية ، ولا الحواريون بعده .

فيا أيها الملك كيف تستحل سفك الدماء وسبى الحريم وأخذ الأمول بغير حجة من الله ورسله . ثم أما يعلم الملك ان بديارنا من النصارى أهل الذمة والأمان ما لا يحصى عددهم إلا الله ، ومعاملتنا فيهم

---

(1) ٢٩ : التوبة .

معروفة ، فكيف يعاملون أسرى المسلمين بهذه المعاملات التى لا يرضى بها ذو مروءة ، ولا ذو دين ؟ ! لست أقول عن الملك وأهل بيته ولا أخوته ؛ فإن ابا العباس شاكر للملك ولأهل بيته كثيراً ، معترفاً بما فعلوه معه من الخير ، وإنما أقول عن عموم الرعية . أليس الأسرى فى رعية الملك ؟ ! أليست عهود المسيح وسائر الأنبياء توصي بالبر والاحسان . فأين ذلك ؟ ! .

هذا وأنت تعلم ان المسلمين لا ذنب لهم أصلا ؛ بل هم المحمودون على ما فعلوه ؛ فإن الذي أطبقت العقلاء على الاقرار بفضله هو دينهم ، حتى الفلاسفة أجمعوا على انه لم يطرق العالم دين أفضل من هذا الدين . فقد قامت البراهين على وجوب متابعته .

ثم هذه البلاد ما زالت بأيديهم الساحل : بل وقبرص ايضا ما أخذت منهم إلا من أقل من ثلاثمائة سنة ، وقد وعدهم النبى ﷺ أنهم لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة . فما يؤمن الملك ان هؤلاء الأسرى المظلومين ببلدته ينتقم لهم رب العباد والبلاد ، كما ينتقم لغيرهم ؟ ! وما يؤمنه أن تأخذ المسلمين حمية إسلامهم فينالوا منها ما نالوا من غيرها ؟ ! ونحن إذا رأينا من الملك وأصحابه ما يصلح عاملناهم بالحسنى ، والا فمن بغي عليه لينصرنه الله .

وأنت تعلم أن ذلك من أيسر الأمور على المسلمين ، وأنا ما غرضي الساعة إلا مخاطبتكم بالتي هى أحسن ، والمعاونة على النظر فى العلم ، واتباع الحق ، وفعل ما يجب ، فإن كان عند الملك من يثق بعقله ودينه فليبحث معه عن أصول العلم وحقائق الأديان ، ولا يرضى ان يكون من هؤلاء النصارى المقلدين ، الذين لا يسمعون ولا يعقلون ؛ ان هم إلا كالانعام ؛ بل هم أضل سبيلا .

وأصل ذلك ان تستعين بالله ، وتسأله الهداية ، وتقول : اللهم ! أرنى الحق حقا ، وأعني على اتباعه . وأرنى الباطل باطلا ، وأعني على اجتنابه ، ولا تجعله مشتبها علي فاتبع الهوى فأضل . وقل اللهم ! رب

جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون : اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

ثم ان كثيراً منهم إنما أخذوا غدراً ، والغدر حرام فى جميع الملل والشرائع والسياسات ، فكيف تستحلون أن تستولوا على من أخذ غدراً ؟ ! أفتأمنون مع هذا ان يقابلكم المسلمون ببعض هذا ، وتكونون مغذورين ؟ ! والله ناصرهم ومعينهم ؛ لا سيما في هذه الأوقات ، والأمة قد امتدت للجهاد . واستعدت للجلاد . ورغب الصالحون وأولياء الرحمن فى طاعته ، وقد تولى الثغور الساحلية أمراء ذوو بأس شديد ، وقد ظهر بعض أثرهم ، وهم في ازدياد .

ثم عند المسلمين من الرجال الفداوية ، الذين يغتالون الملوك فى فرشها . وعلى افراسها : من قد بلغ الملك خبرهم ؛ قديما ، وحديثاً . وفيهم الصالحون الذين لا يرد الله دعواتهم ، ولا يخيب طلباتهم ، الذين يغضب الرب لغضبهم ، ويرضى لرضاهم ، وهؤلاء التتار مع كثرتهم وانتسابهم إلى المسلمين لما غضب المسلمون عليهم أحاط بهم من البلاء ما يعظم عن الوصف . فكيف يحسن أيها الملك بقوم يجاورون المسلمين من أكثر الجهات أن يعاملوهم هذه المعاملة التى لا يرضاها عاقل ؛ لا مسلم ، ولا معاهد ؟ ! .

والكتاب لا يحتمل البسط أكثر من هذا ؛ لكن أنا ما أريد للملك إلا ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، وهما شيئان . (احدهما) له خاصة ، وهو معرفته بالعلم والدين ، وانكشاف الحق ، وزوال الشبهة ، وعبادة الله ، كما أمر . فهذا خير له من ملك الدنيا بحذافيرها . وهو الذي بعث به المسيح ، وعلمه الحواريين . (الثانى) له وللمسلمين ، وهو مساعدته للأسرى الذين فى بلاده ، وإحسانه إليهم ، وأمر رعيته بالاحسان إليهم ، والمعاونة لنا على خلاصهم ؛ فإن فى الاساءة اليهم

دركا على الملك فى دينه ودين الله تعالى ، ودركا من جهة المسلمين ، وفى المعاونة على خلاصهم حسنة له فى دينه ، ودين الله تعالى وعند المسلمين ؛ وكان المسيح أعظم الناس توصية بذلك .

ومن العجب كل العجب ان يأسر النصارى قوماً غدراً أو غير غدر ولم يقاتلوهم ، والمسيح يقول : « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك » ؟ ! وكلما كثرت الأسرى عندكم كان أعظم لغضب الله وغضب عباده المسلمين ؛ فكيف يمكن السكوت على أسرى المسلمين فى قبرص ، سيما وعامة هؤلاء الأسرى قوم فقراء ، وضعفاء ، ليس لهم من يسعى فيهم . وهذا أبو العباس مع انه من عباد المسلمين ، وله عبادة ، وفقر ، وفيه مشيخة ، ومع هذا فما كاد يحصل له فداؤه إلا بالشدة . ودين الإسلام يأمرنا ان نعين الفقير ، والضعيف . فالملك أحق ان يساعد على ذلك من وجوه كثيرة ؛ لا سيما والمسيح يوصي بذلك فى الانجيل ، ويأمر بالرحمة العامة ، والخير الشامل ، كالشمس والمطر .

والملك وأصحابه إذا عاونونا على تخليص الأسرى والاحسان إليهم كان الحظ الأوفر لهم فى ذلك في الدنيا والآخرة . أما فى الآخرة فإن الله يثيب على ذلك ويأجر عليه ، وهذا مما لا ريب فيه عند العلماء المسيحيين الذين لا يتبعون الهوى ؛ بل كل من اتقى الله وأنصف علم أنهم أسروا بغير حق ، لا سيما من أخذ غدراً ، والله تعالى لم يأمر المسيح ولا أحدا من الحواريين ، ولا من اتبع المسيح على دينه ؛ لا بأسر أهل ملة إبراهيم ، ولا يقتلهم . وكيف وعامة النصارى يرون بأن محمداً رسول الأميين ؟ ! فكيف يجوز أن يقاتل أهل دين اتبعوا رسولهم .

فإن قال قائل : هم قاتلونا أول مرة . قيل : هذا باطل فيمن غدرتم به ومن بدأتموه بالقتال . وأما من بدأكم منهم فهو معذور ، لأن الله تعالى أمره بذلك ، ورسوله ؛ بل المسيح والحواريون أخذ عليهم المواثيق بذلك ، ولا يستوي من عمل بطاعة الله ورسله ودعا إلى عبادته ودينه ،

وأقر بجميع الكتب والرسل ، وقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كله لله ، ومن قاتل في هوى نفسه وطاعة شيطانه على خلاف أمر الله ورسله .

وما زال فى النصارى من الملوك والقسيسين والرهبان والعامة من له مزية على غيره في المعرفة والدين ؛ فيعرف بعض الحق ، وينقاد لكثير منه ، ويعرف من قدر الاسلام وأهله ما يجهله غيره ، فيعاملهم معاملة تكون نافعة له فى الدنيا والآخرة ، ثم في فكاك الأسير وثواب العتق من كلام الأنبياء والصديقين ما هو معروف لمن طلبه ، فمهما عمل الملك معهم وجد ثمرته .

وأما فى الدنيا فإن المسلمين أقدر على المكافأة فى الخير والشر من كل أحد ، ومن حاربوه فالويل كل الويل له ، والملك لابد أن يكون سمع السير ، وبلغه أنه ما زال فى المسلمين النفر القليل منهم من يغلب أضعافا مضاعفة من النصارى وغيرهم ، فكيف إذا كانوا أضعافهم ؟ ! وقد بلغه الملاحم المشهورة فى قديم الدهر وحديثه : مثل أرعبين الفا يغلبون من النصارى أكثر من أربعمائة الف ، اكثرهم فارس . وما زال المرابطون بالثغور مع قلتهم واشتغال ملوك الإسلام عنهم يدخلون بلاد النصارى ، فكيف وقد من الله تعالى على المسلمين باجتماع كلمتهم ، وكثرة جيوشهم ، وبأس مقدميهم ، وعلو هممهم ، ورغبتهم فيما يقرب إلى الله تعالى ، واعتقادهم أن الجهاد أفضل الاعمال المطوعة ، وتصديقهم بما وعدهم نبيهم حيث قال : « يعطى الشهيد ست خصال : يغفر له بأول قطرة من دمه . ويرى مقعده فى الجنة . ويكسى حلة الايمان . ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين . ويوقى فتنة القبر . ويؤمن من الفزع الأكبر يوم القيامة » .

ثم إن فى بلادهم من النصارى أضعاف ما عندكم من المسلمين ؛ قال فيهم من رؤوس النصاى من ليس فى البحر مثهلم إلا قليل . وأما

أسراء المسلمين فليس فيهم من يحتاج إليه المسلمون ، ولا من ينتفعون به ، وإنما نسعى فى تخليصهم لأجل الله تعالى رحمة لهم ، وتقربا إليه يوم يجزى الله المصدقين ، ولا يضيع أجر المحسنين .

وأبو العباس حامل هذا الكتاب قد بث محاسن الملك وإخوته عندنا واستعطف قلوبنا إليه ؛ فذلك كاتبت الملك لما بلغتنى رغبته في الخير ، وميله إلى العلم والدين ، وأنا من نواب المسيح وسائر الأنبياء في مناصحة الملك وأصحابه ، وطلب الخير لهم ؛ فإن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس ، يريدون للخلق خير الدنيا والآخرة ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويدعونهم إلى الله ، ويعينونهم على مصالح دينهم ودنياهم . وان كان الملك قد بلغه بعض الأخبار التى فيها طعن على بعضهم ، أو طعن على دينهم ؛ فاما أن يكون المخبر كاذبا ، او ما فهم التأويل ، وكيف صورة الحال . وان كان صادقا عن بعضهم بنوع من المعاصي والفواحش والظلم : فهذا لابد منه في كل أمة ؛ بل الذي يوجد فى المسلمين من الشر أقل مما فى غيرهم بكثير ، والذي فيهم من الخير لا يوجد مثله فى غيرهم .

والملك وكل عاقل يعرف أن اكثر النصارى خارجون عن وصايا المسيح والحواريين ، ورسائل بولص وغيره من القديسيين ؛ وإن كان أكثر ما معهم من النصرانية شرب الخمر ، وأكل الخنزير ، وتعظيم الصليب ، ونواميس مبتدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، وأن بعضهم يستحل بعض ما حرمته الشريعة النصرانية . هذا فيما يقرون به . وأما مخالفتهم لما لا يقرون به فكلهم داخل في ذلك . بل قد ثبت عندنا عن الصادق المصدوق رسول الله ﷺ أن المسيح عيسى ابن مريم ينزل عندنا بالمنارة البيضاء فى دمشق ، واضعاً كفيه على منكبى ملكين ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام ، ويقتل مسيح الضلالة الأعور الدجال الذي يتبعه

اليهود ، ويسلط المسلمون على اليهود ، حتى يقول الشجر والحجر : يا مسلم ! هذا يهودي ورائي فاقتله . وينتقم الله للمسيح بن مريم مسيح الهدى من اليهود ما آذوه وكذبوه لما بعث إليهم .

وأما ما عندنا في أمر النصارى ، وما يفعل الله بهم من ادالة المسلمين عليهم ، وتسليطه عليهم : فهذا مما لا أخبر به الملك ؛ لئلا يضيق صدره ؛ ولكن الذي أنصحه به ان كل من أسلف إلى المسلمين خيراً ومال إليهم كانت عاقبته معهم حسنة بحسب ما فعله من الخير ؛ فإن الله يقول : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ .[1]

والذي أختم به الكتاب الوصية بالشيخ أبي العباس ، بغيره من الأسرى ، والمساعدة لهم ، والرفق بمن عندهم من أهل القرآن ، والامتناع من تغيير دين واحد منهم ، وسوف يرى الملك عاقبة ذلك كله . ونحن نجزي الملك على ذلك باضعاف ما في نفسه . والله يعلم اني قاصد للملك الخير ؛ لأن الله تعالى أمرنا بذلك ، وشرع لنا أن نريد الخير لكل أحد ، ونعطف على خلق الله ، وندعوهم إلى الله ، وإلى دينه ، وندفع عنه شياطين الانس والجن .

والله المسئول أن يعين الملك على مصلحته التي هي عند الله المصلحة ، وأن يخير له من الأقوال ما هو خير له عند الله ، ويختم له بخاتمة خير . والحمد لله رب العالمين . وصلواته على أنبيائه المرسلين . ولا سيما محمد خاتم النبيين والمرسلين ، والسلام عليهم أجمعين .

---

(١) ٧ ، ٨ : الزلزلة .

ثـــالثـــاً

رسالة ابن تيمية للحث على حرب التتار

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى من يصل إليه من المؤمنين والمسلمين

سلام الله عليكم ورحمة الله وبركاته ، فإنا نحمد إليكم الله الذى لاإله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وهو على كل شىء قدير ، ونسأله أن يصلى على صفوته من خليقته ، وخيرته من بريته ، محمدٍ عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وسلم تسليماً .

أما بعد : فقد صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا [(١)] ﴾ والله تعالى يحقق لنا تمام الكلام بقوله : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ [(٢)] .

فإن هذه الفتنة التى ابتلى بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام . قد جرى فيها شبيه ما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله ﷺ فى المغازى التى أنزل الله فيها كتابه ، و تلى بها نبيه والمؤمنين : ما هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة ، فإن نصوص الكتاب والسنة ، اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظى والمعنوى ، أو بالعموم المعنوى .

---

(١) ٢٥ : الأحزاب .

(٢) ٢٦ : الأحزاب .

وعهود الله فى كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمة ، كما نالت أولها وإنما قص الله علينا قصص من قبلنا من الأمم ، لتكون عبرة لنا . فنشبه حالنا بحالهم ، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها . فيكون للمؤمن من المتأخرين شبه بما كان للمؤمن من المتقدمين ، ويكون للكافر والمنافق من المتأخرين ما كان للقافر والمنافق من المقتدمين . كما قال تعالى لما قص قصة يوسف مفصلة وأجمل ذكر قصص الأنبياء . ثم قال ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [1] أى هذه القصص المذكورة فى الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة كنحو ما يذكر فى الحروب ، وفى السير المكذوبة .

وقال تعالى لما ذكر قصة فرعون : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [2] .

وقال فى سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [3] .

وقال تعالى فى محاصرته لبنى النضير ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [4] .

---

(١) ١١١ : يوسف .

(٢) ٢٥ ، ٢٦ : النازعات .

(٣) ١٣ : آل عمران .

(٤) ٢ : الحشر .

فأخبرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة ، وممن قبلها من الأمم .

وذكر فى غير موضع : أن سنته فى ذلك سنة مطردة ، وعادته مستمرة .

فقـال تعـالى ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [1]

وقال تعالى ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [2] .

وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المتقدمين [3] .

فينبغى للعقلاء أن يعتبروا بسنة الله وأيامه فى عباده . ودأب الأمم وعاداتهم ، لاسيما فى مثل هذه الحادثة العظيمة التى طبقت الخافقين خبرهـا ، واستطار فى جميع ديار الإسلام شررها ، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه ، وكشر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه ، وكاد فيه عمود الكتاب أن يجتث ، ويخترم . وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم [1] وعقر دار المؤمنين أن يحل بها البوار ، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار وظن المنافقون والذين فى قلوبهم مرض أن ما وعدهم الله ورسوله إلا غروراً ، وأن لن ينقلب حزب الله ورسوله إلى أهلهم أبداً وزين ذلك

---

(١) ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ : الأحزاب .

(٢) ٢٢ ، ٢٣ : الفتح .

(٣) فقال « كدأب آل فرعون والذين من قبلهم » ١١ : آل عمران .

فى قلوبهم وظنوا ظن السوء فكانوا قوماً بوراً . ونزلت فتنة تركت الحليم فيها حيران . وأنزلت الرجل الصاحى منزل السكران ، وتركت الرجل اللبيب لكثرة الوسواس ليس بالنائم ولا اليقظان ، وتناكرت فيها قولب المعارف والإخوان ، حتى بقى للرجل بنفسه شغل عن أن يغيث اللهفان . وميز الله فيها أهل البصائر والإيقان . من الذين فى قلوبهم مرض أو نفاق وضعف إيمانه . ورفع بها أقواماً إلى الدرجات العالية ، كما خفض بها أقواماً إلى المنازل الهاوية . وكفَّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة ، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامة مختصرة من القيامة الكبرى .

فإن الناس تفرقوا فيها ما بين شقى وسعيد . كما يتفرقون كذلك فى اليوم الموعود . وفر الرجل فيها من أخيه وأمه وأبيه . إذ كان لكل امرىء منهم شأن يغنيه . وكان من الناس من أقصى همته النجاة بنفسه ، لا يلوى على ماله ولا ولده ولا عرسه . كما أن منهم من فيه قوة على تخليص الأهل والمال . وآخر فيه زيادة معونة لمن هو فيه ببال . وآخر منزلته منزلة الشفيع المطاع ، وهم درجات عند الله فى المنفعة والدفاع . ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلا الإيمان والعمل الصالح . والبر والتقوى ، وبليت فيها السرائر . وظهرت الخبايا التى كانت تكتمها الضمائر وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه فى المآل . وذم سادته وكبراءه من أطاعهم فأضلهم السبيل . كما حمد ربه من صدق فى إيمانه فاتخذ مع الرسول سبيلاً . وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية ، من الأخبار بما يكون . وواطأتها قلوب الذين هم فى هذه الأمة محدثون . كما تواطأت عليه المبشرات التى أريها المؤمنون . وتبين فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين . الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة .

حيث تحزب الناس ثلاثة أحزاب : حزب مجتهد فى نصر الدين ،

وآخر خاذل له ، وآخر خارج عن شريعة الإسلام .

وأنقسم الناس ما بين مأجور ومعذور وآخر قد غره بالله الغرور وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً . ليجزى الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً .

ووجه الاعتبار فى هذه الحادثة العظيمة : أن الله بعث محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . وشرع له الجهاد إباحة له أولاً ، ثم إيجاباً له ثانياً لما هاجر إلى المدينة ، وصار له فيها أنصار ينصرون الله ورسوله . فغزا بنفسه ﷺ مدة مقامه بعد ـ الهجرة وهو نحو عشر سنين : بضعاً وعشرين غزوة . أولها بدر وآخرها تبوك . أنزل الله فى أول مغاريه سورة الأنفال ، وفى آخرها سورة براءة وجمع بينهما فى المصحف ، لتشابه أول الأمر وآخره . كما قال أمير المؤمنين ـ لما سئل عن القران بين السورتين من غير فصل بالبسملة [١] .

وكان القتال منها فى تسع غزوات .

فأول غزوات القتال : بدر ، وآخرها حنين : والطائف ، وأنزل الله فيه ملائكته كما أخبر به القرآن [٢] . ولهذا صار الناس يجمعون بينهما فى القول ، وإن تباعد ما بين الغزوتين مكاناً وزماناً .

فإن بدراً كانت فى رمضان ، فى السنة الثانية من الهجرة ، ما بين المدينة ومكة شمالى مكة . وغزوة حنين فى آخر شوال من السنة الثامنة .

---

(١) وقد ذكر أصحاب التفاسير أقوالا كثيرة فى نزول براءة بغير بسملة راجعها فى « تفسير ابن كثير » .

(٢) قال تعالى « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين » التوبة : ٢٥ ، ٢٦ .

وحنين واد قريب من الطائف ، شرقى مكة .

ثم قسم النبى ﷺ غنائمها بالجعرانة واعتمر عمرة الجعرانة .

ثم حاصر الطائف فلم يقاتله أهل الطائف زحفاً وصفوفاً وإنما قاتلوه من وراء جدار ، فآخر غزوة كان فيها القتال زحفاً واصطفافاً : هى غزوة حنين .

وكانت غزوة بدر أول غزوة ظهر فيها المسلمون على صناديد الكفار ، وقتل الله وأسر رؤوسهم ، مع قلة المسلمين وضعفهم ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر ، ليس معهم إلا فرسان . وكان يعتقب الاثنان والثلاثة على البعير الواحد وكان عدوهم بقدرهم أكثر من ثلاث مرات فى قوة وعدة وهيئة وخيلاء [١] .

فلما كان من العام المقبل غزا الكفار المدينة [٢] ، وفيها النبى ﷺ وأصحابه فخرج إليهم النبى ﷺ وأصحابه فى نحو من ربع الكفار ، وتركوا عيالهم بالمدينة ، لم ينقلوهم إلى موضع آخر . وكانت أولاً الكرة للمسلمين عليهم ، ثم صارت للكفار فانهزم عامة عسكر المسلمين إلا نفراً قيلاً حول النبى ﷺ . منهم من قتل . ومنهم من جرح . وحرصوا على قتل النبى ﷺ ، حتى كسروا رباعيته ، وشجوا جبينه ، وهشموا البيضة على رأسه ، وأنزل الله فيها نحواً من شطر سورة آل عمران من قوله ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ [٣] ﴾ .

قال فيها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ [٤] ﴾ .

---

(١) اعتقبوا البعير : أى يركبه كل واحد فترة زمنية ثم يتركه لزميله وهكذا . .

(٢) غزوة أحد .

(٣) ١٢١ : آل عمران .

(٤) ١٥٥ : آل عمران .

وكان الشيطان قد نعق فى الناس [1] أن محمداً قد قتل . فمنهم من تزلزل لذلك فهرب ومنهم من ثبت ، فقاتل ، فقال الله تعالى :

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجرى الله الشاكرين » [1] .

وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا فى العام الماضى . وكانت هزيمة المسلمين فى العام الماضى بذنوب ظاهرة ، وخطايا واضحة ، من فساد النيات ، والفخر والخيلاء ، والظلم ، والفواحش والإعراض عن حكم الكتاب والسنة ، وعن المحافظة على فرائض الله ، والبغى على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم .

وكان عدوهم فى أول الأمر راضيا منهم بالموادعة والمسالمة ، شارعاً فى الدخول فى الإسلام . وكان مبتدئاً فى الإيمان والأمان ، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان .

فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحص الله الذين آمنوا ، وينيبوا إلى ربهم ، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغى والمكر والنكث ، والخروج عن شرائع الإسلام ، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر ، وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام .

فقد كان فى نفوس كثير من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير مالو يقترن به ظفر بعدوهم ـ الذى هو على الحال المذكور ـ لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا مالا يوصف .

كما أن نصر الله المسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة ، وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين .

فإن النبى ﷺ قال « لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له

---

(١) أى : أشاع فيهم .

وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له »[1] أ . هـ .

فلما كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد ، وكان بعد أحد بأكثر من سنة وقيل بسنتين ـ قد ابتلى المسلمون بغزوة الخندق[2] .

كذلك فى هذا العام ابتلى المؤمنون بعدوهم ، كنحو ما ابتلى المسلمون مع النبى ﷺ عام الخندق ، وهى غزوة الأحزاب التى أنزل الله فيها سورة الأحزاب : وهى سورة تضمنت ذكر هذه الغزاة التى نصر الله فيها عبده ﷺ ، وأعز فيها جنده المؤمنين ، وهزم الأحزاب الذين تحزبوا عليه وحده ، بغير قتال ، بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم .

ذكر فيها خصائص رسول الله ﷺ وحقوقه وحرمته وحرمة أهل بيته ، لما كان هو النبى الذى نصره الله فيها بغير قتال كما كان ذلك فى غزوتنا هذه ، سواء وظهر فيها سر تأييد الدين ، كما ظهر فى غزوة الخندق . وانقسم الناس فيها كانقسامهم عام الخندق .

وذلك أن الله تعالى منذ بعث محمداً ﷺ وأعزه بالهجرة والنصرة صار الناس إلى ثلاثة أقسام .

قسماً مؤمنين ، وهم الذين آمنوا به ظاهراً وباطناً .

وقسماً كفاراً ، وهم الذين أظهروا الكفر به .

وقسماً منافقين وهم الذين آمنوا ظاهراً لا باطناً .

ولهذا افتتح سورة البقرة بأربع آيات من صفة المؤمنين ، وآيتين فى صفة الكافرين ، وثلاث عشرة آية فى صفة المنافقين .

وكل واحد من الإيمان والكفر والنفاق له دعائم وشعب . كما دلت

---

(١) رواه مسلم فى الزهد عن صهيب قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أ . هـ .

(٢) وفى هذه الغـزوة كان النصر من عنـد الله بريح أرسلها أطاحت بخيام الكفار وما معهم حتى ظنوا إن المسلمين هاجموهم .

عليه دلائل الكتاب والسنة . وكما فسره أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى الحديث المأثور عنه فى الإيمان ودعائمه وشعبه .

فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله بن أبى وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول ، أو جحود بعض ما جاء به أو بغضه ، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه أو المسرة بانخفاض دينه ، أو المساءة بظهور دينه ، ونحو ذلك : مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله .

وهذا القدر كان موجوداً فى زمن رسول الله ﷺ . وما زال بعده بل هو بعده أكثر منه على عهده ، لكن موجبات الإيمان على عهده أقوى . فإذا كانت مع قوتها كان النفاق موجوداً فوجوده فيما دون ذلك أولى .

وكما أنه ﷺ كان يعلم بعض المنافقين ، ولا يعلم بعضهم ، كما بينه قوله « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم »[1] .

كذلك خلفاؤه بعده ، وورثته قد يعلمون بعض المنافقين ولا يعلمون بعضهم .

وفى المنتسبين إلى الإسلام من عامة الطوائف منافقون كثيرون فى الخاصة والعامة ويسمون الزنادقة .

وقد اختلف العلماء فى قبول توبتهم فى الظاهر ، لكون ذلك لا يعلم إذ هم دائماً يظهرون الإسلام .

وهؤلاء يكثرون فى المتفلسفة ، من المنجمين ونحوهم ثم فى الأطباء ، ثم فى الكتاب أقل من ذلك .

ويوجدون فى المتصوفة والمتفقهة ، وفى المقاتلة والأمراء وفى العامة أيضاً

---

(١) ١٠١ : التوبة .

ولكن يوجدون كثيراً فى نحل أهل البدع لا سيما الرافضة ، ففيهم من الـزنـادقة والباطنية ، والقرامطة ، والاسماعيلية ، والنصيرية [١] ، ونحوهم من المنافقين الزنادقة منتسبة إلى الرافضة .

---

(١) **القرامطة** : هم أصحاب أبى سعيد بن بهرام الجنابى القائم بالبحرين صاحب مذهب القـرامـطية كانـوا يقـولـون بنبـوة عبد الله بن الحارث الكندى ويعبدونه ، وعبادتهم لم تدل على أنهم اعتقدوه بعد النبوة إلهاً وفرض عليهم سبع عشرة صلاة لنفسه فى اليوم والليلة . فى كل صلاة خمس عشرة ركعة . وكان يقول بالتناسخ .

ومنهم من يقول بنبوة نبى بعد رسول الله ﷺ ومنهم من يقول : إن عليا رضى الله عنه ـ والحسن والحسين ، وعلى بن الحسين ، ومحمد بن على بن الحنفية وجعفر بن محمد : أنبياء كلهم . وكان المختار بن أبى عبيد منهم . وقد ادعى النبوة لنفسه فالحذر من أهل البدع .

أما الإسماعيلية : فهم المنسوبون إلى محمد بن إسماعيل ـ عليهما الرحمة ـ وليسوا على دينه ، بل قالوا : إنه الذى إليه كتم السر الباطن عندهم ، الذى أنزل الله تعالى على رسول الله ﷺ ـ وأمره بكتمه عن الناس إلا عن وصيه وخليفته : على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ قالوا : لأنه سبحانه أمره أن يختار من أمته أفضلهم ويعلمه شطر ما اطلع عليه من أنوار ذلك العلم ، فاختار عليا ـ رضى الله عنه ـ فأخبره بذلك واستكتمه أن لا يخرج منه ذلك إلا إلى من يخلفه من الأئمة المؤمنين من ذريته ، حتى انتهى ذلك إلى محمد بن إسماعيل .

وأمـا النصيرية : فلم ينسبوا إلى شيخ . وهم القائلون بالهية على رضى الله عنه ـ ويسبون فاطمة رضى الله عنها ـ بنت رسول الله ﷺ بكل ما هو قبيح ـ لعنهم الله ـ ويسبون الحسن والحسين رضى الله عنهما ـ . . الخ .

وأما الباطنية : فهم الكيسانية وسميت الباطنية لقولهم : إن لكتاب الله ولسنة نبيه ـ ﷺ ـ ولكل حيوان وجماد ونحوه لغة وحركة وسكون بواطن خفية ، وإشارات مرموزات نفيسات بخلاف ظواهرها يجرى منها مجرى الله من الكفر .

وكانوا يعتقدون تناسخ الأرواح . « بتصرف عن البرهان فى معرفة قواعد أهل الأديان » انظر (٣٧ ، ٤٨ ، ٤٦ ، ٤٧) . ط دار التراث العربى .

وهؤلاء المنافقون فى هذه الأوقات لكثير منهم ميل إلى دولة هؤلاء التتار ، لكونهم لا يلزمونهم شريعة الإسلام ، بل يتركونهم وما هم عليه .

وبعضهم إنما ينفرون عن التتار لفساد سيرتهم فى الدنيا ، واستيلائهم على الأموال ، واجترائهم على الدماء ، والسبى ، لا لأجل الدين .

فهذا ضرب النفاق الأكبر .

وأما النفاق الأصغر : فهو النفاق فى الأعمال ونحوها . مثل أن يكذب إذا حدث ، ويخلف إذا وعد ، ويخون إذا ائتمن ، أو يفجر إذا خاصم .

ففى الصحيحين عن النبى ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

وفى رواية صحيحة « وإن صلى ، وصام ، وزعم أنه مسلم » .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق ، حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف . وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » أ . هـ .

الإعراض عن الجهاد :

ومن هذا الباب الإعراض عن الجهاد . فإنه من خصال المنافقين .

قال النبى ﷺ « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » رواه مسلم .

وقد أنزل الله سورة براءة ، التى تسمى الفاضحة . لأنها فضحت المنافقين أخرجاه فى الصحيحين عن ابن عباس ، قال : « هى الفاضحة . مازالت تنزل « ومنهم ومنهم » حتى ظنوا أن لا يبقى أحد

إلا ذكر فيها » .

وعن المقداد بن الأسود قال : « هى سورة البحوث ، لأنها بحثت عن سرائر المنافقين » .

وعن ابن عباس قال « هى المبعثرة » والبعثرة والإثارة متقاربان .

وعن ابن عمر « أنها المقشقشة » لأها تبرى من مرض النفاق يقال : تقشقش المريض إذا برأ .

وقال الأصمعى : وكان يقال لسورتى الإخلاص : [1] المقشقشتان لأنهما يبرئان من النفاق .

وهذه السورة نزلت فى آخر مغازى النبى ﷺ : غزوة تبوك ، عام تسع من الهجرة ، وقد عز الإسلام . وظهر . فكشف الله فيها أحوال المنافقين ووصفهم فيها بالجبن ، وترك الجهاد أو وصفهم بالبخل عن النفقة فى سبيل الله ، والشح من المال . وهذان داءان عظيمان : الجبن والبخل .

قال النبى ﷺ « شر ما فى المرء شح هالع ، وجبن خالع » حديث صحيح » [2] أ . هـ . ولهذا قد يكونان من الكبائر الموجبة للكفار .

كما دل عليه قوله ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [3] .

وقال تعالى ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [4] .

---

(١) السورتان : قل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد . .

(٢) رواه أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) ١٨٠ : آل عمران .

(٤) ١٦ : الأنفال .

وأما وصفهم بالجبن والفزع . فقال تعالى ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (١) .

فأخبر سبحانه أنهم ، وإن حلفوا أنهم من المؤمنين ، فما هم منهم ، ولكن يفزعون من العدو ، فلو يجدون ملجأ يلجأون إليه من المعاقل والحصون التى يفر إليها من يترك الجهاد ، أو مغارات ـ وهى جمع مغارة ، ومغارات . سميت بذلك لأن الداخل يغور فيها ، أى يستتر كما يغور الماء .

أو مدخلاً : وهو الذى يتكلف الدخول اليه ، إما لضيق بابه أو لغير ذلك أى مكاناً يدخلون إليه ، ولو كان الدخول بكلفة ومشقة ، لولوا عن الجهاد إليه . وهم يجمحون . أى يسرعون إسراعاً لا يرده شىء ، كالفرس الجموح الذى إذا حمل لا يرده اللجام وهذا وصف منطبق على أقوام كثيرين فى حادثتنا . وفيما مثلها من الحوادث وبعدها .

وكذلك قال فى سورة محمد ﷺ « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموتى فأولى لهم » أى فبعداً لهم ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ (٢) .

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (٣) فحصر المؤمنين فيمن امن وجاهد .

---

(١) ٥٦ ، ٥٧ : سورة براءة .

(٢) ٢٠ ، ٢١ : محمد .

(٣) ١٥ : الحجرات .

وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [1] .

فهذا إخبار من الله بأن المؤمن لا يستأذن الرسول فى ترك الجهاد ، وإنما يستأذن الذى لا يؤمن ، فكيف بالتارك من غير استئذان .

ومن تدبر القرآن وجد نظائر هذا متضافرة على هذا المعنى .

وقال فى وصفهم بالشح « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون » [2] .

فهذه حال من أنفق كارهاً ، فكيف بمن ترك النفقة رأساً ؟ !

وقال ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [3] .

وقال « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون » [4] .

وقال فى السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ

---

(١) ٤٤ ، ٤٥ : براءة .

(٢) ٥٤ : براءة .

(٣) ٥٨ : براءة .

(٤) ٧٥ ، ٧٦ : براءة .

﴿ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1] .

فانتظمت هذه الآية حال من أخذ المال بغير حق ، أو منعه من مستحقه من جميع الناس ، فإن الأحبار هم العلماء ، والرهبان هم العباد .

وقد أخبر أن كثيراً منهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون ـ أى يعرضون ويمنعون .

يقال : صد عن الحق صدوداً . وصد غيره .

وهذا يندرج فيه ما يؤكل بالباطل ، من وقف ، أو عطية على الدين ، كالصلاة ، والنذور التى تنذر لأهل الدين ، ومن الأموال المشتركة ، كأموال بيت المال ونحو ذلك .

فهذا فيمن يأكل المال بالباطل بشبهة دين .

ثم قال ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

فهذا يتدرج فيه من كنز المال عن النفقة الواجبة فى سبيل الله . والجهاد أحق الأعمال باسم سبيل الله ، سواء كان مليكاً أو مقدماً ، أو غنياً ، أو غير ذلك .

وإذا دخل فى هذا ما كنز من المال الموروث والمكسوب . فما كنز من الأموال المشتركة التى يستحقها عموم الأمة ـ ومستحقها : مصالحهم ـ أولى وأحرى .

★ ★ ★

---

(١) ٣٥ ، ٣٦ : براءة .

فإذا تبين بعض معنى المؤمن والمنافق ، فإذا قرأ الانسان سورة الأحزاب ، وعرف من المنقولات فى الحديث والتفسير والفقه والمغازى كيف كانت صفة الواقعة التى نزل بها القرآن ثم اعتبر هذه الحادثة بتلك ؛ وجد مصداق ما ذكرنا ، وأن الناس انقسموا فى هذه الحادثة إلى الأقسام الثلاثة ، كما انقسموا فى تلك ، وتبين له كثير من المستشابهات .

افتتح الله السورة [١] بقوله ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ [٢]﴾ وذكر فى اثنائها قوله ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ [٣]﴾ ثم قال ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [٤].

فأمره باتباع ما أوحى إليه من الكتاب والحكمة ـ التى هى سنته ـ وبأن يتوكل على الله .

فبالأولى تحقق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ ، وبالثانية تحقق قوله ﴿ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ومثل ذلك قوله ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ [٥]﴾ وقوله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ [٦]﴾ .

وهذا وان كان مأموراً به فى جميع الدين ، فإن ذلك فى الجهاد أوكد ، لأنه يحتاج إلى أن يجاهد الكفار والمنافقين وذلك لا يتم إلا بتأييد قوى من

---

(١) سورة الأحزاب .
(٢) ١ : الأحزاب .
(٣) ٤٨ : الأحزاب .
(٤) ٢ : الأحزاب .
(٥) ١٢٣ : هود .
(٦) ٨٨ : هود .

الله ، ولهذا كان الجهاد سنام العمل [1] وانتظم سنام جميع الأحوال الشريفة .

ففيه سنام المحبة ، كما فى قوله ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ [2] ﴾ .

وفيه سنام التوكل وسنام الصبر ، فإن المجاهد أحوج الناس إلى الصبر والتوكل ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ، ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ [3] ﴾ وقال موسى لقومه ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [4] ﴾ .

ولهذا كان الصبر واليقين ـ اللذين هما أصل التوكل ـ توجبان الامامة فى الدين ، كما دل عليه قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ [5] ﴾ .

ولهذا كان الجهاد موجباً للهداية التى هى محيطة بأبواب العلم كما دل عليه قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا [6] ﴾

وفى الجهاد أيضاً : حقيقة الزهد فى الحياة الدنيا ، وفى الدار الدنيا .

---

(١) أى عموده وأصله .

(٢) ٥٤ : المائدة .

(٣) ٤١ : النحل .

(٤) ١٢٨ : الأعراف .

(٥) ٢٤ : السجدة .

(٦) ٦٩ : العنكبوت .

وفيه أيضاً : حقيقة الاخلاص ، فإن الكلام فيمن جاهد فى سبيل الله ، لا فى سبيل لرياسة ، ولا فى سبيل المال ، ولا فى سبيل الحمية ، وهذا لا يكون إلا لمن قاتل ليكون الدين كله لله ، ولتكون كلمة الله هى العليا .

وأعظم مراتب الاخلاص : تسليم النفس والمال للمعبود ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ [1] والجنة اسم للدار التى حوت كل نعيم ، أعلاه النظر إلى الله ، إلى ما دون ذلك لما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، مما قد نعرفه وقد لا نعرفه ، كما قال الله تعالى فيما رواه عنه رسوله ﷺ « اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » أ . هـ .

فقد تبين بعض أسباب افتتاح هذه السور بهذا .

ثم إنه تعالى قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا [2] ﴾

وكان مختصر القصة : أن المسلمين تَـحَزَّب عليهم عامة المشركين الذين حولهم وجاءوا بجموعهم إلى المدينة ليستأصلوا المؤمنين .

فاجتمعت قريش وحلفاؤها من بنى أسد ، وأشجع ، وفزارة ، وغيرهم من قبائل نجد .

واجتمعت أيضاً اليهود من قريظة ، والنضير ، فإن بنى النضير كان النبى ﷺ قد أجلاهم قبل ذلك ، كما ذكره الله تعالى فى سورة الحشر

---

(١) ١١١ : التوبة .

(٢) ٩ : الأحزاب .

فجاءوا فى الأحزاب إلى قريظة ، وهم معاهدون للنبى ﷺ ومجاورون له ، قريباً من المدينة ، فلم يزالوا حتى نقضت قريظة العهد ، ودخلوا فى الأحزاب ، فاجتمعت هذه الأحزاب العظيمة وهم بقدر المسلمين مرات متعددة فرفع النبى ﷺ الذرية من النساء ، والصبيان فى آطام المدينة ، وهى مثل الجواسق ، ولم ينقلهم إلى موضع أخر ، وجعل ظهرهم إلى سلع - وهو الجبل القريب من المدينة ، من ناحية الغرب والشام - وجعل بينه وبين العدو خندقاً ، والعدو قد أحاط بهم من العالية والسافلة ، وكان عدواً شديد العداوة ، لو تمكن من المؤمنين لكانت لكاتبه فيهم اعظم النكايات .

وفى هذه الحادثة تحزب هذا العدو من فُعلٍ وغيرهم من انواع الترك ومن فرس ومستغربة ، ونحوهم من أجناس المُرقدة ، ومن نصارى من الأرمن وغيرهم ، ونزل هذا العدو بجانب ديار المسلمين وهو بين الاقدام والاحجام ، مع مكة من بإزائهم من المسلمين ، ومقصودهم الاستيلاء على الدار ، واصطلام أهلها ، كما نزل أولئك بنواحى المدينة بإزار المسلمين .

ودام الحصار على المسلمين عام الخندق - على ما قيل - بضعاً وعشرين ليلة ، وقيل عشرين ليلة .

وهذا العدو عبر الفرات سابع عشر ربيع الآخر ، وكان أول انصرافه راجعاً من حلب ، ولما رجع مقدمهم الكبير قازان عين معه : يوم الأثنين حادى ، أو ثانى عشر ، جماى الأولى ، يوم دخل العسكر عسكر المسلمين إلى مصر المحروسة ، واجتمع بهم الداعى ، وخاطبهم فى هذه القضية ، وكان الله سبحانه وتعالى لما ألقى فى قلوب المؤمنين ما ألقى من الاهتمام والعزيمة : ألقى فى قلوب عدوهم الرَّوْعَ والانصراف .

وكان عام الخندق برد شديد ، وريح شديدة منكرة ، بها صرف الله

الأحزاب عن المدينة ، كما قال الله تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا [١] ﴾ .

وهكذا هذا العام أكثر الله فيه الثلج والمطر والبرد ، على خلاف أكثر العـادات ، حتى كره أكثر الناس ذلك ، وكنا نقول لهم : لا تكرهوا ذلك ، فإن لله فيه حكمة ورحمة .

وكان ذلك من أعظم الأسباب التى صرف الله به العدو ، فإنه كثر عليهم الثلج والمطر والبرد ، حتى هلك من خيلهم ما شاء الله ، وهلك أيضـاً منهم من شاء الله ، وظهـر فيهم وفى بقية خيلهم من الضعف والعجز بسبب البرد والجوع ما رأوا أنهم لا طاقة لهم معه بقتال ، حتى بلغنى عن بعض كبار المقدمين فى أرض الشام أنه قال : لا بيّض الله وجوهنا ، عدونا فى الثلج إلى شعره ، ونحن قعود لا نأخذهم ؟

وحتى علموا أنهم كانوا صيداً للمسلمين ، لو يصف دونهم ، لكن فى تأخير الله اصطيادهم حكمة عظيمة .

وقـال الله فى شأن الأحزاب ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [٢] ﴾

وهكذا هذا العام . جاء العدو من ناحيتى علو الشام ، وهو شمال الفـرات ، وهـو قبلى الفرات ، فزاغت الأبصار زيغاً عظيماً ، وبلغت القلوب الحنـاجـر لعظم البلاء ، لا سيما لما استفاض الخبر بانصراف العسكر إلى مصر ، وتقرب العدو ، وتوجهه إلى دمشق ، وظن الناس بالله الظنونا .

---

(١) ٩ : الأحزاب .

(٢) ١٠ : الأحزاب .

هذا يظن أنه لا يقف قداحهم أحد من جند الشام ، حتى يصطلموا أهل الشام .

وهـذا يظن أنهم لو وقفـوا الكسردهم كسرة ؟ وأحاطوا بهم إحاطة الهالة بالقمر .

وهذا يظن أن أرض الشام ما بقيت تسكن ، ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام .

وهـذا يظن أنهم يأخـذونها ، ثم يذهبون إلى مصر فيستولى عليها فلا يقف قدامهم أحد ، فيحدث نفسه بالفرار إلى اليمن ونحوها .

وهذا ـ إذا أحسن ظنه ـ قال : إنهم يملكونها لعام ، كما ملكوها عام هولاكو ، سنة سبع وخمسين ، ثم قد يخرج العسكر من مصر فسينقذها منهم ، كما خرج ذلك العام ، وهذا طن خيارهم .

وهـذا يظن أن ما أضره به أهـل الآثـار النبوية ، وأهل التحديث والمبشرات أمانى كاذبة ، وخرافات لاغية .

وهذا قد استولى عليه الرعب والفزع ، حتى يمر الظنون بفؤاده مر السحاب ليس له عقل يتفهم ولا لسان يتكلم .

وهـذا قد تعـارضت عنده الامارات ، وتقابلت عنده الارادات ، لا سيما وهو لا يفرق من المبشرات بين الصادق والكاذب ، ولا يميز فى التحديث بين المخطىء والصائب ، ولا يعرف النصوص الأثرية معرفة العلماء ، بل إما أن يكون جاهلاً بها وقد سمعها سماع العبر ، ثم قد لا يتفطن لوجوده دلالتها الخفية ، ولا يهتدى لدفع ما يتخيل أنه معارض لها فى بادىء الرؤية .

فلذلك استوت الحيرة على من كان متسماً بالاهتداء ، وتراجمت به الآراء تراجم الصبيان بالحصباء ، هنالك أبتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً

شديداً ابتلاهم الله بهذا الابتلاء ، الذى يكفر به خطيئائهم ، ويرفع به درجاتهم ، وزلزلوا بما يحصل لهم من الرجفات ، ما استوجبوا به أعلى الدرجات . قال الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (1) .

وهكذا قالوا فى هذه الفتنة فيها وعدهم أهل الوراثة النبوية ، والخلافة الرسالية ، وحزب الله المحدثون عنه ، حتى حصل لهؤلاء التأسى برسوله ﷺ ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (2) ﴾ .

فأما المنافقون فقد نص التنبية عليهم .

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد تكرر ذكرهم فى هذه السورة ، فذكروا هنا ، وفى قوله ﴿ * لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ (3) ﴾ وفى قوله ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ (4) ﴾ وذكر الله مرض القلب فى مواضع ، فقال تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ (5) ﴾ .

والمرض فى القلب كالمرض فى الجسد ، فكما ان هذا هو إحالة عن الصحة والاعتدال من غير موت ، فكذلك قد يكون فى القلب مرض يحيله عن الصحة والاعتدال ، من غير أن يموت القلب ، سواء أفسد إحساس القلب وإدراكه ، أو أفسد عمله وحريته .

وذلك ـ كما فسروه ـ هو من ضعف الايمان ، إما بضعف علم القلب

---

(1) ١٢ : الأحزاب .
(2) ٢١ : الأحزاب .
(3) ٦٠ : الأحزاب .
(4) ٣٢ : الأحزاب .
(5) ٤٩ : الأنفال .

واعتقاده ، وإما بضعف عمله وحركته ، فيدخل فيه من ضعف تصديقه ومن غلب عليه الجبن والفزع ، فإن أوطء القلب من الشهوة المحرمة والحسد والجبن والبخل وغير ذلك ، كلها أمراض ، وكذلك الجهل والشكوك والشبهات الثمانية .

وعلى هذا قوله ﴿ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ [1] ﴾ هو إرادة الفجور وشهوة الزنا ، كما فسروه به ، ومنه قول النبى ﷺ « وأى داء أدوى من البخل ؟» .

وقد جعل الله تعالى كتابه شفاء لما فى الصدور

وقال النبى ﷺ « إنما شفاء العى السؤال » ا . هـ .

وكـان يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأهواء والأدواء » .

ولن يخاف الرجلٍ غير الله إلا لمرض فى قلبه .

كما ذكر أن رجلاً شقا إلى أحمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة ، فقال : لو صححت لم تخف أحداً ، أى خوفك من أجل زوال الصحة من قلبك .

ولهـذا أوجب الله على عبـاده أن لا يخانـوا حزب الشيطان ، بل لا يخافـون غيره تعالى ، فقال ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ [2] ﴾ .

وقال لعموم بنى إسرائيل تنبيها لنا ﴿ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ [3] ﴾

وقال ﴿ فَلَا تَخْشَوُا ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ [4] ﴾ .

---

(١) ٣٢ : الاحزاب

(٢) ١٧٥ : آل عمران

(٣) ٥١ : النحل

(٤) ٤٤ : المائدة

وقال : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ [1] .

وقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [2] .

وقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ [3] .

وقال : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ [4] .

وقال ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ ﴾ [5] فدلت هذه الآية - وهي قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [6] على أن المرض والنفاق فى القلب يوجب الريب فى الانباء الصادقة التى توجب كفر الانسان : من الخوف حتى يظنوا أنها كانت غروراً ، كما وقع فى حادثتنا هذه سواءً .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ﴾ [7] .

---

(١) ١٥٠ : البقرة .

(٢) ٣ : المائدة

(٣) ١٨ : التوبة

(٤) ٣٩ : الأحزاب

(٥) ١٣ : التوبة

(٦) ٦٠ : الاحزاب

(٧) ١٣ : الاحزاب

وكان النبى ﷺ قد عسكر بالمسلمين عند سلع [1] ، وجعل الخندق بينه وبين العدو ، فقالت طائفة منهم : لا مقام لكم هنا ، لكثرة العدو فارجعوا إلى المدينة .

وقيل : لا مقام لكم على دين محمد ، فأرجعوا إلى دين الشرك ، وقيل : لا مقام لكم على القتال ، فارجعوا إلى الاستئمان والاستجارة بهم ، وهكذا لما قدم هذا العدو كان ممن المنافقين من قال : ما بقيت الدولة الإسلامية تقوم ، فينبغى الدخول فى دولة التتار ، وقال بعض الخاصة : ما بقيت أرض الشام تسكن ، بل ننتقل عنها ؟ إما إلى الحجاز واليمن ، وإما إلى حصر وقال بعضهم ، بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء ، كما قد استسلم لهم أهل العراق ، والدخول تحت حكمهم .

فهذه المقالات الثلاث قد قيلت فى هذه النازلة ، كما قيلت فى تلك .

وهكذا قال طائفة من المنافقين ، والذين فى قلوبهم مرض ، لأهل دمشق خاصة والشام عامة لا مقام لكم بهذه الأرض .

ونفى المقام بها أبلغ من نفى المقام ، وان كانت فد قرئت بالضم أيضا [2]

فإن من لم يقدر أن يقوم بالمكانة فكيف يقيم به ؟

قال الله تعالى ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ

---

(١) سلع : اسم جبل تقدم

(٢) قال أبو حيان فى البحر « قرأ السلمى والأعرج واليمانى وحفص بضم الميم ، فاحتمل أن يكون مكاناً ، أى لا مكان إقامة ، واحتمل أن يكون مصدراً ، أى لا إقامة . وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو رجاء والحسن وقتادة والنخعى وعبد الله بن مسلم وطلحة وباقى السبعة بفتحها ، واحتمل أيضاً أى لا مكان قيام ، واحتمل المصدر أى لا قيام لكم » ا . هـ هامش العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن يتيمة (١٥٦) .

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [1] .

كان قوم من هؤلاء المذمومين يقولون - والناس مع النبى ﷺ عند سلع داخل الخندق ، والنساء والصبيان فى آطام المدينة : -

يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة . أى مكشوفة ، فليس بينها وبين العدو حائل .

وأصل العورة : الخمالى ، الذى يحتاج إلى حفظ وستر ، يقال : أعور مجلسك إذا ذهب ستره ، أو سقط جداره ، ومنه عورة العدو .

وقال مجاهد والحسن : أى ضائعة يخشى عليها السارق ، وقال قتادة : قالوا : بيوتنا مما يلى العدو ، فلأنا من على أهلنا ، فائذن لنا أن نذهب إليها لحفظ النساء والصبيان .

قال الله تعالى « وما هى بعورة » لأن الله يحفظها « إن يريدون إلا فراراً » فهم يقصدون الفرار من الجهاد ، ويحتجون بحجة العائلة .

وهكذا أصاب كثيراً من الناس فى هذه الغزاة ، صاروا يفرون من الثغر إلى المقاتل والحصون ، وإلى الأماكن البعيدة ، كمصر ، ويقولون ما مقصودنا إلا حفظ العيال ، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا ، وهم يكذبون ، فقد كان يمكنهم جعلهم فى حصن دمشق ، لو دنا العدو ، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد ، فكيف بمن فر بعد إرسال عياله ؟

قال الله تعالى ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ [2] فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثم طلبت منهم الفتنة - وهى الافتتان عن الدين بالكفر ، أو النفاق - لأعطو الفتنة ، ولجابر وهما من غير توقف .

---

(١) ١٣ : الأحزاب

(٢) ١٤ : الأحزاب

وهذه حال أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم ، ثم طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام ـ وتلك فتنة عظيمة ـ لكانوا معه على ذلك ، كما ساعدهم فى العام الماضى أقوام بأنواع من الفتنة فى الدين والدنيا ، ما بين ترك واجبات وفعل محرمات ، إما فى حق الله ، واما فى حق العباد ، كترك الصلاة ، وشرب الخمور ، وسب السلف ، وسب جنود المسلمين ، والتجسس لهم على المسلمين ، ودلالتهم على أموال المسلمين ، وصريحهم ، وأخذ أموال الناس ، وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة ، وإرجاف قلوب المسلمين منهم ، إلى غير ذلك من أنواع الفتنة .

ثم قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾[1] وهذه حال أقوام عاهدوا ثم نكثوا ، قديماً وحديثاً فى هذه الغزوة .

فإنه فى العام الماضى ، وفى هذا العام : فى أول الأمر ، كان من أصناف الناس من عاهد على أن يقاتل ولا يفر ، ثم فرّ منهزماً ، لما اشتد الأمر .

ثم قال الله تعالى ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2] فأخبر الله أن الفرار لا ينفع لا من الموت ولا من القتل ، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون .

ولذلك قال النبى ﷺ « إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه[3] » ا . هـ والفرار من القتل كالفرار من الجهاد .

---

(١) ١٥ : الأحزاب

(٢) ١٦ : الأحزاب

(٣) الحديث : اخرجه الشيخان وأحمد ومالك والنسائى . مسند الامام أحمد (٥ / ٢١٣).

وصرف « لن » ينفى الفعل فى الزمن المستقبل ، والفعل نكرة ، والنكرة فى سياق النفى تعم جميع أفرادها .

فاقتضى ذلك : أن الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبداً وهذا خبر الله الصادق ، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله فى خبره والتجربة تدل على مثل ما دل عليه القرآن ، فإن هؤلاء الذين فروا فى هذا العام لم ينفعهم فرارهم ، بل خسروا الدين والدنيا ، وتفاوتوا فى المصائب ، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك فى الدين والدنيا حتى الموت الذى فروا منه كثر فيهم ، وقل فى المقيمين ، فما مات مع الهرب من شاء الله ، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ، ولا قتل ، بل الموت قل فى البلد من حين خرج الفارُّون ، وهكذا سنة الله قديماً وحديثاً .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا [١] ﴾ يقول : لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلا حياة قليلة ، ثم تموتون ، فإن الموت لابد منه .

وقد حكى عن بعض الحمقى انه قال : فنحن نريد ذلك القليل .

وهذا جهل منه بمنى الآية ، فإن الله لم يقل : إنهم يتمتعون بالفرار قليلاً ، لكنه ذكر أنه لا منفعة منه أبداً .

ثم ذكر جواباً ثانياً ، أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلا متاع مكيل .

ثم إنه ذكر جواباً ثالثاً . وهو أن الفارَّ يأتيه ما قضى له من المضرة ويأتى الثابت ما قضى له من المسرة ، فقال ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا [٢] ﴾ .

---

(١) ٣٦ : الأحزاب

(٢) ١٧ : الأحزاب

ونظيره : قوله في سياق آيات الجهاد ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ[1]﴾ ، وقوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [2]﴾ .

فمضمون الأمر : أن المنايا محتومة ، لكم ممن حضر الصفوف فسلم ، وكم ممن فر من المنية فصادفته ، كما قال خالد بن الوليد ـ لما اختصر « ولقد حضرت كذا وكثرا صفاً ، وان ببدنى بضعاً وثمانين ما بين ضربةٍ بسيف وطعنة برمح ، ورمية بسهم ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العنز ، فلا قرّت أعين الجبناء » ا . هـ .

ثم قال الله تعالى ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا [3]﴾

قال العلماء : كان من المنافقين من يرجع من الخندق فيدخل المدينة ، فإذا جاءهم أحد قالوا له : ويحك ، اجلس ، فلا تخرج ، ويكتبون بذلك إلى إخوانهم الذين بالعسكر : أن ائتونا بالمدينة ، فإنا ننتظركم يثبطونكم عن القتال وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً ، فيأتون العسكر لدى الناس وجوههم ، فإذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة ، فانصرف بعضهم من عند النبى ﷺ فوجد أخاه لأبيه وأمه وعنده شواء ونبيذ [4] ، فقال : أنت ههنا ، ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف ، فقال هلم إلى ، فقد أحيط بك وبصاحبك .

---

(١) ٧٨ : النساء

(٢) ١٥٦ : آل عمران

(٣) ١٨ : الأحزاب

(٤) مايتخذ من العنب .

فوصف المثبطين عن الجهاد ـ وهم صنفان ـ يأنهم إما أن يكونوا فى بلد الغزاة ، أو فى غيره ، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل ، أولهما ، وان كانوا فى غيره راسلوهم ، أو كاتبوهم : بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة ، ليكونوا معهم بالحصون ، أو بالبعد ، كما جرى فى هذه الغزاة .

فإن اقواماً فى العسكر والمدينة وغيرها صاروا يعوقون من أراد الغزو ، وأقواماً بعثوا من المعاقل والحصون أو غيرها إلى إخوانهم : هلم إلينا .

قال الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا [١] ، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ [٢] ﴾ اى نجلاء عليكم بالقتال معكم ، والنفقة فى سبيل الله ، وقال مجاهد : نجلاء عليكم بالخير والظفر والعنيمة .

وهذه حال من بخل على المؤمنين بنفسه وماله ، أو شحَّ عليهم بفضل الله : من نصره ورزقه الذى يجزيه بفعل غيره ، فإن أقواماً يشحون بمعروفهم ، وأقواماً يشحون بمعروف الله وفضله ، وهم الحساد .

ثم قال تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ [٢] ﴾ من شدة الرعب الذى فى قلوبهم يشبهون المغمى عليه وقت النزع ، فإنه يخاف ويذهل عقله ، ويشخص بصره ، ولا يطرف ، فكذلك هؤلاء ، لأنهم يخافون القتل .

﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ [٣] ﴾ .

ويقال فى اللغة « صلقوكم » وهو رفع الصوت بالكلام المؤذى ومنه « الصالقة » وهى التى ترفع صوتها بالمصيبة ، يقال : صلقة ، وسلقة ،

---

(١) ١٨ : الأحزاب

(٢) ١٩ : الأحزاب

(٣) ١٩ : الأحزاب

وقد قرأ طائفة من السلف بها ، لكنها خارجة عن المصحف - إذا خاطبه خطاباً شديداً قوياً ، ويقال : خطيب مسلاق ، إذا كان بليغاً فى خطبته ، لكن الشدة هنا فى الشر لا فى الخير ، كما « بألسنة حداد » « أشحة على الخير » وهذا السلق بالألسنة الحادة .

وهذا يكون بوجوده ، تارة يقول المنافقون للمؤمنين : هو الذى جرى علينا بشؤمكم فإنكم أنتم الذين دعوتم الناس إلى هذا الدين ، وقاتلتم عليه ، وخالصتموهم فان هذه مقالة المنافقين للمؤمنين من الصحابة .

وتارة يقولون : أنته الذين أشرتم علينا بالمقام هنا ، والثبات بهذا الثغر إلى هذا الوقت ، وإلا فلو كنا سافرنا قبل هذا لما أصابنا هذا .

وتارة يقولون - أنته مع قلتكم وضعفكم - تريدون أن تكسروا العدو ، وقد غركم دينكم ، كما قال تعالى ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[1] ﴾ .

وتارة يقولون : انتم مجانين ، لا عقل لكم ، تريدون أن تهلكوا أنفسكم والناس معكم .
وتارة يقولون : أنواعاً من الكلام المؤذى الشديد ، وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أى صراص على الغنيمة والمال الذى قد حصل لكم .

قال قتادة : إن كان وقت قسمة الغنيمة ، بسطوا ألسنتهم فيكم .
يقولون : اعطونا ، فلستم أحق بها منا ، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذ لهم للحق ، وأما عند الغنيمة فأشح قوم .
وقيل : أشحة على الخير ، أى بخلاء به ، لا ينعفون ، لا بنفوسهم ولا بأموالهم .

---

(١) ٤٩ : الأنفال

وأصل الشح : شدة الحرث الذى يتولد عنه البخل والظلم : من منع الحقِّ ، وأخذ الباطل ، كما قال النبى ﷺ « إياكم والشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا [1] » ا . هـ .

فهؤلاء أشحاء على إخوانهم ، أى بخلاء عليهم ، وأشحاء على الخير أى حراص عليه ، فلا ينفقونه ، كما قال ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [2] ﴾ .

ثم قال تعالى ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا [3] ﴾.

فوصفهم بثلاثة أوصاف :

أحدها : أنهم لفرط خوضهم يحسبون الأحزاب لم ينصرفوا عن البلد ، وهذه حال الجبان الذى فى قلبه مرض ، فإن قلبه يبادر إلى تصديق الخبر المخوف ، وتكذيب خبر الأمن .

الثانى : أن الأحزاب إذا جاءوا تمنوا أن لا يكونوا بينكم ، بل يكونون فى البادية بين الأعراب ، يسألون عن أبنائكم : إيش خبر المدينة ؟ وايش جرى للناس ؟

---

(١) اخرجه أبو داود والحاكم عن ابن عمرو قال السيوطى فى الجامع الصغير (صحيح)،(١٠٤) .

(٢)٨ : العاديات .

(٣) ٢٠ : الاحزاب .

الثالث : أن الأحزاب إذا أتوا ، وهم فيكم ، لم يقاتلو إلا قليلاً وهذه الصفات الثلاثة منطقية على كثير من الناس فى هذه الغزوة ، كما يعرفونه من أنفسهم ويعرفه منهم من خيرهم .

ثم قال تعالى ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا [1] ﴾ .

فأخبر سبحانه أن الذين يبتلون بالعدو ، كما ابتلى رسول الله ﷺ ، فلهم فيه أسوة حسن ، حيث أصابهم مثل ما أصابه ، فليتأسوا به فى التوكل والصبر ، ولا يظنون أن هذه نقم لصاحبها ، وإهانة له ، فإنه لو كان كذلك ما ابتلى بها خير الخلائق ، بل بها ينال الدرجات العالية ، وبها يكفر الله الخطايا لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، وإلا فقد يبتلى بذلك من ليس كذلك . فيكون فى حقه عذاباً ، كالكفار والمنافقين .

ثم قال تعالى ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا [2] ﴾

قال العلماء : كان الله قد أنزل فى سورة البقرة ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾[3]

---

(١) ٢١ : الأحزاب .

(٢) ٢٢ : الأحزاب .

(٣) ٢١٤ : البقرة .

فبين الله سبحانه ـ منكرا على من حسب خلاف ذلك ـ أنهم لا يدخلون الجنة إلا بعد أن يبتلوا مثل هذه الأمم قبلهم وبالبأساء ، وهى الحاجة والفاقة « الضراء » وهى الوجع والمرض ، و« الزلزال » وهى زلزلة العدو .

فلما جاء الأحزاب عام الخندق ، فرأوهم ، قالوا ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ (1) وعلموا أن الله قد ابتلاهم بالزلزال ، وأتاهم مثل الذين خلوا من قبلهم ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً لحكم الله وامره .

وهذه حال أقوام فى هذه الغزوة ، قالوا ذلك .

وكذلك قوله ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ أى عهده الذى عاهد الله عليه ، فقاتل حتى قتل ، أو عاش .

« والنحب » النذر والعهد ، وأصله من النحيب ، وهو الصوت ، ومنه : الانتحاب فى البكاء ، وهو الصوت الذى تكلم به فى العهد .

ثم لما كان عهدهم هو نذرهم الصدق فى اللقاء ـ ومن صدق فى اللقاء فقد يقتل ـ صار يفهم من قوله « قضى نحبه » أنه استشهد لا سيما إذا كان النحب : نذر الصدق فى جميع المواطن ، فإنه لا يقضيه إلا بالموت ، وقضاء النحب هو الوفاء بالعهد ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ ﴾ (2) .

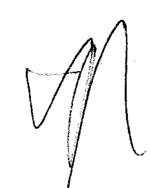
أى اكمل الوفاء ، وذلك لمن كان عهده مطلقاً بالموت ، أو القتل .

« ومنهم من ينتظر » قضاءه ، إذا كان قد وفى البعض ، فهو ينتظر تمام العهد . وأصل القضاء : الاتمام والاكال .

---

(1) ٢٢ : الأحزاب .

(2) ٢٣ : الأحزاب .



﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[1] .

بين الله سبحانه أنه أتى بالأحزاب ليجزى الصادقين بصدقهم حيث صدقوا فى أيمانهم ، كما قال تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[2] ، فحصر الإيمان فى المؤمنين المجاهدين ، وأخبر أنهم هم الصادقون فى قولهم : آمنا : لا من قال ، كما قالت الأعراب « آمنا » والإيمان لم يدخل فى قلوبهم ، بل انقادوا واستسلموا .

وأما المنافقون فهم بين أمرين : إما أن يعذبهم ، وإما أن يتوب عليهم ، فهذا حال الناس فى الخندق وفى هذه الغزوة .

وأيضاً فإن الله تعالى ابتلى الناس بهذه الفتنة ، ليجزى الصادقين بصدقهم وهم الثابتون الصابرون ، لينصروا الله ورسوله ، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم .

ونحن نرجوا من الله أن يتوب على خلق كثير من هؤلاء المؤمنين ، فإن منهم من ندم ، والله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، وقد « فتح الله للتوبة باباً من قبل المغرب عرضه أربعون سنة ، لا يغلقه حتى تطلع الشمس من قبله »[3] أ هـ .

وقد ذكر أهل المغازى ـ منهم ابن اسحاق ـ أن النبى ﷺ قال فى الخندق : « الآن نغزوهم ، ولا يغزونا » فما غزت قريش ولا غطفان[4] ، ولا اليهود المسلمين بعدها ، بل غزاهم المسلمون ،

---

(٢) ٢٤ : الأحزاب .

(٣) ١٥ : الحجرات .

(١) اخرجه البخارى فى التاريخ عن صفوان بن عسال انظر الجامع الصغير للسيوطى (٢١٥)

(٢) غطفان : اسم مكان وينسب إليه غزوة إسلامية .

ففتحوا خيبر ثم فتحوا مكة .

كذلك إن شاء الله ، هؤلاء الأحزاب من المضل وأصناف الترك ومن الفرس والمستعربة ، والنصارى ونحوهم من أصناف الخارجين عن شريعة الإسلام . الآن تغزوهم ولا يغزونا ، ويتوب الله على من شاء من المسلمين ، الذين خالط قلوبهم حرص أو نفاق ، بأن ينيبوا إلى ربهم ويحسن ظنهم فى الإسلام ، وتقوى عزيمتهم على جهاد عودهم .

فقد أراهم الله من الآيات ما فيه عبرة لأولى الأبصار ، كما قال « ورد الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً »[1] فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا : ريح شديدة باردة ، وبما فرق به بين قلوبهم حتى شتتا شملهم ، ولم ينالوا خيراً ، إذ كان همهم فتح المدينة والاستيلاء على الرسول والصحابة ، كما كان هم هذا العدو وفتح الشام والاستيلاء على من بها من المؤمنين ، فردهم الله بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم ، والبرد الشديد ، والريح العاصف ، والجوع المزعج ، ما الله به عليم .

وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والأمطار العظيمة التى وقعت فى هذا العام ، حتى طلبوا الاستصحاء غير مرة ، وكنا نقول لهم : هذا فيه خيرة عظيمة ، وفيه لله حكمة وسر فلا تكرهوه ، فكان من حكمته : أنه فيما قيل : أصاب قازان وجنوده ، حتى أهلكهم ، وهو كان فيما قيل : سبب رحيلهم ، وابتلى به المسلمون ليتبين من يصبر على الله وحكمه ممن يعز عن طاعته وجهاد عدوه .

وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من أرض الشام وأراضى حلب :

---

(١) ٢٥ : الأحزاب .

يوم الاثنين حادى عشر جمادى ، يوم دخلت مصر عثيب العسكر ، واجتمعت بالسلطان وأمراء المسلمين ، وألقى الله فى قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما ألقاه ، فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو ، جزاء منه ، وبياناً أن النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها ، وان لم يقع الفعل ، وان تباعدت الديار .

وذكر أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغل والكرج ، وألقى بينهم تباغضاً وتعادياً كما ألقى سبحانه عام الأحزاب بين قريش وغطفان ، وبين اليهود ، كما ذكر ذلك أهل المغازى .

فإنه لم يتسع هذا المكان لأن نصف فيه قصة الخندق ، بل من طالعها علم صحة ذلك ، كما ذكره أهل المغازى ، مثل غزوة بن الزبير ، والزهرى ، وموسى بن عقبة ، وسعيد بن يحيى الأموى ، ومحمد بن عائد ، ومحمد بن اسحاق ، والواقدى وغيرهم . ثم تبقى بالشام منهم بقايا ، سار إليهم من عسكر دمشق أكثرهم ، مضافاً إلى عسكر حماة وحلب ، وما هنالك ، وثبت المسلمون بازائهم ، وكانوا أكثر من المسلمين بكثير ، لكن فى ضعف شديد ، تقربوا إلى حماة ، وأذلهم الله تعالى ، فلم يقدموا على المسلمين قط ، وصار من المسلمين من يريدون الاقدام عليهم ، فلم يوافقه غيره ، فجرت مناوشات صفار ، كما قد كان يجرى فى غزوة الخندق ، حيث قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه فيها عمرو بن ود العامرى لما اقتحم الخندق ، وهو نفر قليل من المشركين .

وكذلك صار يتقرب بعض العدو فيكسرهم المسلمون ، مع كون العدو المتقرب أضعاف من قد سرى إليه من المسلمين ، وما من حرة إلا وقد كان المسلمون مستظهرين عليهم ، وساق المسلمون خلفهم فى آخر النوبات ، فلم يدركوهم إلا عند عبور الفرات ، وبعضهم فى جزيرة فيها ، فرأوا أوائل المسلمين فهربوا منهم وخالطوهم ، وأصاب

المسلمون بعضهم ، وقيل : إنه غرق بعضهم .

وكان عبورهم وخلوُّ الشام منهم فى أوائل رجب ، بعد أن جرى ما بين عبور قازان أولاً وهذا العبور : رخبات رولكات صغار ، وغرضا على الذهاب إلى حماة غير مرة ، لأجل الغزاة ، لما بلغنا أن المسلمين يريدون غزو الدين بقوا وثبت بازائهم المقدم الذى يحماه ، ومن معهم من العسكر ، ومن أتاه من دمشق ، وعزموا على لقائهم ، ونالوا أجراً عظيماً ، وقد قيل : إنهم كانوا عدة لحمانات ، إما ثلاثة أو أربعة .

وكان من المقدر أنه إذا عزم الأمر وصدق المؤمنون الله يلقى فى قلوب عدوهم الرعب فيهربون ، لكن أصابوا من البليدات بالشمال مثل « تيزين [١] » و « النوعة [٢] » و « مصرة عصرين [٣] » وغيرهما ما لم يكونوا وطئوه فى العام الماضى .

وقيل : إن كثيراً من تلك البلاد كان فيهم ميل إليهم ؛ بسبب الرفض ، وأن عند بعضهم مزّامين منهم ، لكن هؤلاء ظلمة ومن اعان ظالماً بلىُ به ، والله تعالى يقول ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [٤]

وقد ظاهرهم على المسلمين : الذين كفروا من أهل الكتاب ، من أهل « سيس » والافرنج ، فنحن نرجوا من الله أن ينزلهم من صياميهم وهى الحصون ـ ويقال القرون به الصيامى ـ ويقذف قلوبهم الرعب .

وقد فتح الله تلك البلاد ويغزوهم إن شاء الله تعالى ، فيفتح أرض

---

(١) اسم بلدة .
(٢) اسم بلدة .
(٣) اسم بلدة .
(٤) ١٢٩ : الأنعام .



العراق وغيرها ، وتعلو كلمة الله ويظهر دينه ، فأن هذه الحادثة كان فيها أمـور عظيمة جازت حد القياس ، وخرجت عن سن العادة ، وظهر لكل ذى عقل من تأييد الله لهذا الدين ، وعنايته بهذه الأمة ، وحفظه للأرض التى بارك فيها للعالمين بعد أن كان الاسلام أن . . . .

وكره العدو كرة فلم يلوعن ، وخذل الناصرون فلو يلودا على ، وتحير السائرون فلم يدروا من ، ولا إلى ، وانقطت الأسباب الظاهرة .

وأهطصت الأحزاب القاهرة ، وانصرفت الفئة الناصرة ، وتخاذلت القلوب المتنــاصرة ، وثبت الفئـة النـاصرة ، وأيقنت بالنصر القلوب الطاهرة واستنجزت من الله وعده العصابة المنصور الظاهرة ، ففتح الله أبواب سماواته لجنوده القاهرة ، وأظهر على الحق آياته الباهرة ، وأقام عمـود الكتـاب بعـد ميله ، وثبت لواء الـدين بقـوته وحوله ، وأرعم معاطس [1] أهل الكفر والنفاق ، وجعل ذلك آية للمؤمنين إلى يوم التلاق .

فالله يتم هذه الثقــه تجمـع قلوب أهـل الايمان على جهـاد أهـل الطغيان ، ويجعل هذه المنة الجسيمة مبدأ لكل منمة كريم ، وأساساً لإقامة الدعوة النبوية القويمة ، ويشفى صدور المؤمنين من أعاديهم ، ويمكنهم من دانيهم وقاصيهم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآل وصحبه وسلم تسليماً .

قال المؤلف رحمه الله :

كتبت أول هذا الكتاب بعد رحيل قازان وجنوده ، لما رجعت من مصر فى جمادى الآخرة ، وأشاعوا انه لم يبق منهم أحد ، ثم لما بقيت

---

(١) بياض بالأصل .

تلك الطائفة اشتعلنا بالاهتمام بجهادهم ، وتعمد الذهاب إلى اخواننا بحماة ، وتحريض الامراء على ذلك ، حتى جاءنا الخير بانصراف المتبقية منهم ، فكملته فى رجب ، والله أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على أشرف الخلق ومحمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

فهـــرست الآيـــــات

الآيـــة	الصفحة

فهـــرست الأحــاديث النبــوية

الحـــديـث	الصفحة

الحـــديـث	الصفحة

الأعـــــلام

البلدان والمواضع والفرق